يوكيو مشيما

الحب الأول

رواية

ترجمة

د. جمال الدين الرمادي

الكتاب: الحب الأول. (رواية)

الكاتب: يوكيو مشيما

ترجمة : د. جمال الدين الرمادي

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

مشيما ، يوكيو

الحب الأول (رواية) / يوكيو مشيما, ترجمة : د. جمال الدين الرمادي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٣ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٦ – ٢١ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٣٤٢٧ / ٢٠١٩

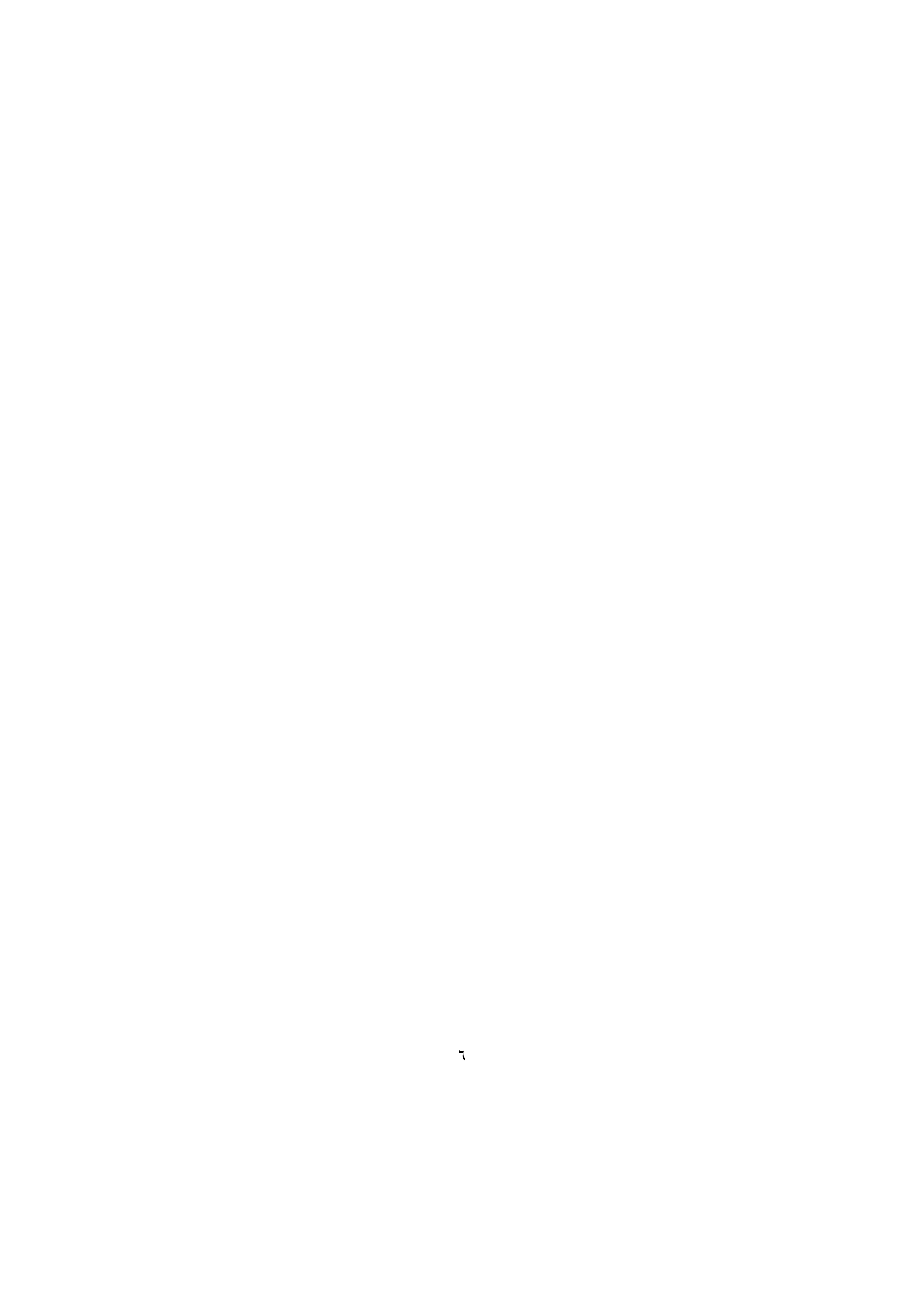
الحب الأول





شخصيات الرواية

Shinji	شنجي
Ryuji	ريوجي
Yasuo Kawamoto	ياسو كواموتو
Hatsue	هاتسو
Chiyoko	تشيوكو
Terukichi	تيروكشي
Jukichi	جوكيشي
Teru Miyata	تيرومياتا
Uta. Jima	أوتاجيما "اسم الجزيرة"



مقدمة

هذه قصة يابانية طريفة من ثمار كاتب ياباني متألق، وهي لون طريف من ألوان الأدب العالمي، وتموج بالحب الخالص والشجاعة الفائقة، وتقع حوادثها في إحدى قرى الصيد اليابانية حيث الجو مفعم بملوحة البحر وبرائحة حبال السفن وبدخان النيران، وتعيش هذه القرية _أوتاجيما_ أي جزيرة الغناء في معزل عن العالم الحديث، وتعد هذه القصة في اليابان من أعظم قصص الحب في العالم.

وتبدأ القصة عندما يقع صبي يدعى "شنجي" في حب صبية اسمها "هاتسو" ويسرد الكاتب بلغة سهلة بسيطة تزخر بالشاعرية وتفيض بالغنائية كيف أن "هاتسو" التي يرسلها أهلها إلى جزيرة أخرى لتتعلم كيفية الغوص والبحث عن اللؤلؤ تعود إلى القرية في الربيع المتفتح. في الوقت الذي ولى فيه موسم الإخطبوط واقبل موسم سمك "الحبار" كما يروي لنا بالأسلوب نفسه كيف يصاب "شنجي" بالدهشة ويعتريه الذهول وهو يرى جمالها الأخاذ لأول وهلة. ويخفق قلبه لمرآها في البرك على الشاطئ حيث لا يزال الصخب والضجيج، وصيحات الصيادين تتعالى وهم يجهزون زوارقهم.

والحياة في قرية الصيد اليابانية مازالت ضيقة الجوانب، فالرجال يعملون منذ بزوغ الفجر حتى غروب الشمس، والنساء لا يستطعن مواجهة البحر، فيغصن بحثاً عن سمك "الحلزون" الباهظ الثمن. ولا يوجد متسع من الوقت للحب، ومع ذلك يقابل "شنجي" محبوبته هاتسو على استحياء، وفي رقة ولكن بصورة بعيدة عن الصدفة.

وعلى الرغم من أن "شنجي" لا يلتقي بهاتسو إلا لماماً، غير أن لقاءاتهما لا تنسى، فقد التقيا ذات مرة عندما هبت عاصفة في برج مراقبة قديم فوق أعلى صخرة في الجزيرة، وكانت المياه قد أغرقت ملابسهما، ولابد من خلعها حتى تجف، ويصور لنا الكاتب هذا الحادث أروع تصوير، ويجعله مثلاً للطهارة والجمال.

وبعد ذلك تحل بهما مأساة في ظل ثرثرة رهيبة، بشعة، وتلوك الألسن سيرتهما، وتكشف لنا القصة عن المشاعر العميقة، والرقة الطبيعية التي قلما نراها في عالمنا المعقد في العصر الحديث.

أما مؤلف هذه القصة "يوكيومشيما" وقد ولد في طوكيو عام ١٩٢٥م وعندما تخرج من مدرسة "بيرز" أو مدرسة اللوردات عام ١٩٤٤م حصل على وسام من الإمبراطور بصفته الطالب النابغة. وتخرج في كلية فقه القانون في جامعة طوكيو الإمبراطورية عام ١٩٤٧ ونشر أولى قصصه عام ١٩٤٨، وتوالت كتاباته بعد ذلك، فألف ثماني روايات، وأربع مسرحيات ناجحة لمسرح كابوكي وكتاباً عن الرحلات. وقد كان ضمن

كتاباته البسيطة ٥٠ قصة قصيرة، وعشر مسرحيات ذات فصل واحد، ومجلدات من المقالات. ونشرت قصة "هدير الأمواج" في اليابان باسم "شيوساي" وحصلت على جائزة "تنكوشا" الأدبية عام ١٩٥٤.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية زار "مشيما" الولايات المتحدة الأمريكية كضيف على وزارة الخارجية، ومجلة بارتيزان ريفيو، وهو من أوائل الكتاب اليابانيين الذين يحظون بهذا التكريم.



الفصل الأول

يبلغ عدد سكان جزيرة "أوتاجيما" جزيرة الغناء حوالي ألف وأربعمائة نسمة، وتحتل من البحر شاطئاً يبلغ طوله نحو ثلاثة أميال تقريباً.

وفي الجزيرة بقعتان فيهما مناظر يسحر جمالها الألباب، وإحدى هاتين البقعتين هي معبد ياشيرو والذي يواجه الجهة الشمالية الغربية، ويقع قرب ذروة الجزيرة ويشرف المعبد على منظر متصل لامتداد خليج أيزي الواسع، وتقع الجزيرة في المضايق التي تصل الخليج بالمحيط الهادي. وتقترب شبه جزيرة "تشيتا" من جهة الشمال وتمتد شبه جزيرة "اتسومي" نحو الشمال الشرقي. وتستطيع أن ترى من جهة الغرب الساحل الممتد بين ميناء "أوجي يمادا" وميناء "يوكايتش" في تسو.

وعندما يصعد المرء الدرجات المائتين في السلم المؤدي إلى المعبد، وينظر وراءه من البقعة حيث توجد شجرة يحرسها كلبان حجريان من كلاب المعبد يمكنك أن ترى كيف تحتضن هذه الشواطئ البعيدة خليج أيزي المذكور في الأساطير دون أن ينال منه الزمن أو تغيره القرون، وقد كانت هناك شجرتان من أشجار الصنوبر المسمى "توري" في تلك المنطقة تلتف أغصانهما في شكل معين، وتعطيان للمشهد إطاراً غريباً إلا إنهما زالتا منذ سنين.

وفي ذلك الحين كانت أحجار الصنوبر المحيطة بالمكان لا تزال خضراء من الشتاء، إلا أن أعشاب البحر التي تنبت في الربيع جعلت البحر احمر اللون على مقربة من الشاطئ، وتهب الريح الشمالية الغربية بصورة دائبة من ناحية "تسو" فتجعل البحر بارداً بحيث لا يستطيع المرء أن يتمتع بمشاهدة ذلك المنظر الجميل.

وقد شيد معبد ياشيرو لواتاتسوس نوسيكوتو إله البحر. وهذه الجزيرة خاصة بالصيادين ومن الطبيعي إذن أن يكون سكانها من الصيادين المخلصين لهذا الإله. فهم يصلون دائماً للإله كي يهدئ البحار.

وأول شيء يفعلونه عند نجاتهم من خطر البحر أن يقدموا قرباناً للشكر عند معبد إله البحر.

وفي المعبد كنز مكون من ست وستين مرآة من البرونز، وإحداها مرآة على شكل حبات العنب يرجع تاريخها إلى القرن الثاني ، وأخرى صورة قديمة لمرآة صينية من عصر الأسرة السادسة لا توجد منها خمس عشرة أو ست عشرة مرآة في اليابان بأسرها. ولابد أن الغزلان والسناجب المحفورة على ظهر المرآة قد جاءت منذ قرون من غابة فارسية، ورحلت نصف محيط الأرض عبر قارات شاسعة، وبحار لا نهاية لها كي تصل إلى أوتاجيما و تستقر فيها.

والمنظر الثاني الرائع في الجزيرة هو من منار قرب قمة جبل "هيجاش" الذي ينتهي بمنحدر إلى البحر، وعند سفح المنحدر يوجد مجرى "أيراكو"

الذي يحدث زئيراً لا ينقطع. وفي الأيام العاصفة تمتلئ هذه المضايق الضيقة التي تصل خليج أيزي بالمحيط الهادي، تمتلئ بالدوامات، ويمتد رأس شبه جزيرة أوتسومي من المجرى المذكور، وتقع على شاطئه الصخري المنعزل قمة رأس "أيراكو" الدقيقة، ويمكنك أن ترى المحيط الهادي الي جنوب شرقي منار الجزيرة، والى الشمال الشرقي عبر خليج اتسومي ووراء سلاسل الجبال يمكنك أحياناً أن ترى جبل "فوجي" وغالباً ما تستطيع ذلك عند الفجر عندما تكون الرياح الغربية قوية.

وعندما تعبر أحدى السفن التجارية التي تبحر من وإلى ناجيا أو يوكاتشي مجرى ايراكو وتشق طريقها عبر آلاف من زوارق الصيد المنتشرة في المجرى بين الخليج والبحر الممدود، فإن عامل المنار يستطيع بسهولة أن يقرأ اسمها بوساطة المجهر، ويستطيع هذا العامل أن يرى اثنين من البحارة يرتديان ملابس العمل الرمادية، و يتحدثان ويقفان فوق ظهر السفينة.

وفي تلك اللحظة دخلت سفينة الشحن الإنجليزية "تاليسحان" المجرى متجهة إلى الميناء. وشاهد عامل المنار بحارتها بوضوح.

وتحول الحارس إلى خوان في المنار، وفوق قطعة خشبية كتبت عليها عبارة "سجل حركة الملاحة" وضع اسم السفن وعلامات إشارتها ، والوجهة التي تقصدها، والوقت، ثم ألقي بهذه الأنباء على جهاز البرق، وأبلغ أصحاب البضاعة في الموانئ التي تقصدها السفن كي يستعدوا لتلقيها.

وكان الوقت بعد الظهر وجبل "هيجاش" حجب الشمس التي تستعد للغروب وألقت على الجبل ظلالاً. وكان هناك نسر يحلق في السماء فوق البحر، وفي كبد السماء راح النسر يرفع جناحاً ويخفض الآخر كأنه يخبرهما، وعندما بدا أنه سيهبط اتجه فجأة إلى الوراء ثم حلق إلى أعلى بأجنحة ساكنة.

وبعد أن غربت الشمس أقبل صياد مسرعاً عبر الممر الجبلي الذي يتجه من القرية عبر المنار، وكان يمسك بيده سمكة كبيرة.

ولم يكن الشاب قد ربا على الثامنة عشرة، وكان قد فرغ من تعليمه العالي في السنة السالفة، وكان طويل القامة، أقوى بنية ممن في مثل عمره، ولم يكن يكشف عن صغر سنه سوى وجهه. وكانت الشمس قد لفحت بشرته فأحرقتها، أما أنفه فدقيق كحال سكان جزيرته، وشفتاه مشقوقتان وعيناه السوداوان على صفاء عظيم بيد أن صفاءهما لم يكن من سمو في العقل بل موهبة يمنحها البحر لأولئك الذين يعولون عليه في أقواتهم. وفي الحق أنه لم يحصل على درجات ممتازة في المدرسة، وكان لا يزال يرتدي الملابس نفسها التي استخدمها في الصيد في ذلك اليوم وهي سروال ورثه عن أبيه الراحل وصديري رخيص.

ومر الغلام بساحة المدرسة الابتدائية المهجورة، وصعد التل المجاور لخزان المياه، وارتقى السلم الحجري فوصل إلى خلف معبد "ياشيرو"

وكانت زهور الخوخ منفتحة في حديقة المعبد، معتمة وقد طواها الفسق، ولم يكن يفصل ذلك المكان عن المنار سوى تسلق لمدة عشر دقائق.

وكان الممر المؤدي إلى الفنار شديد الانحدار، وغير مستقيم، إلى حد أن الشخص الذي لم يتعود عليه لابد أن يضل طريقه حتى في رابعة النهار، غير أن الغلام كان يستطيع أن يغلق عينيه، ثم يهتدي إلى الطريق الصحيح بين الصخور، وجذور أشجار الصنوبر البارزة، وعلى الرغم من أن الغلام غرق في بحر أفكاره، فإنه لم يتعثر في سيره.

ومنذ برهة وجيزة وعندما كانت أشعة النهار، عاد الزورق الذي يعمل فيه الغلام إلى مقره في أوتاجيما. واليوم ككل يوم خرج الغلام للصيد في تايهي مارو، وهو زورق تجاري صغير مع صاحب الزورق وصبي آخر، وعندما عادوا إلى الميناء سلموا صيدهم إلى الجمعية التعاونية ، ثم سحبوا زورقهم إلى الشاطئ وكان الشفق لا يزال صاخباً كما كانت صيحات الصيادين تتعالى وهم يسحبون زوارقهم إلى الرمال.

واسترعت اهتمامه فتاة لم يرها من قبل، وكانت تجلس منحنية طلباً للراحة على كومة من القطع الخشبية الثقيلة المطروحة فوق الرمال، ويدعى هذا الخشب بالألواح نظراً لشكله. وكانت زوارق الصيد تسحب إلى الشاطئ من مؤخرتها أولاً بواسطة ونش، وكانت الألواح الخشبية توضع تحتها لكي تنزلق الزوارق بسهولة الواحد تلو الآخر، والواضح أن الفتاة قد

فرغت لتوها من المساعدة في سحب هذه الألواح، ووقفت هناك لالتقاط أنفاسها.

وكان جبينها مبللاً بالعرق، ووجناتها متوردة؛ وكانت الريح الباردة تهب من الغرب، غير أن الفتاة على ما يبدو كانت تستمتع بها فتحول وجهها نحو الريح وتدع شعرها يتساقط وراء ظهرها.

و كانت ترتدي معطفاً قطنياً من غير أكمام، وزوجاً من القفازات للعمل، ولم يكن لون بشرتها الجميل يختلف عن لون بقية بنات الجزيرة ولكن كان هناك شيء حلو في نظرة عينيها، وشيء وقوف حول حاجبيها، وكانت الفتاة تنظر إلى السماء فوق البحر جهة الغرب حيث كانت الشمس الملتهبة تغطس بين أكوام السحب السوداء.

ولم يستطع الغلام أن يتذكر أنه شاهد هذه الفتاة من قبل إذ لا يوجد وجه في القرية لا يعرفه، وقد حسبها غريبة من أول نظرة، ولكن مع هذا كان رداء الفتاة ليس مما يرتديه الغرباء ولكنها كانت تختلف عن بنات القرية المرحات في أنها جلست منعزلة عنهن تحدق في البحر.

وتعمد الفتى أن يمر أمام الفتاة عن قرب، وبنفس الطريقة التي يحدق فيها الأطفال في شيء غريب توقف الفتي وراح يحملق في وجهها.

وقطبت الفتاة حاجبيها قليلاً، إلا أنها واصلت تحديقها في البحر دون أن يتحول نظرها إلى الفتى.

وبعد أن انتهى الغلام من إمعانه الصامت هرول في سبيله مسرعاً، وفي الوقت الذي شعر فيه أنه أشبع فضوله الغامض، أي بعد فترة، وعندما كان يتسلق الممر إلى المنار أدرك وقاحة نظراته إليها، وقد جعلته هذه الفكرة يشعر بالخجل.

ونظر الفتي إلى البحر من خلال أشجار الصنوبر عبر الممر، وكان المد الزاحف يهدر؛ والبحر اسود اللون قبيل بزوغ القمر، وانحني إلى منعطف حول ما يعرف باسم رابية المرأة، إذ يروى أن شبح امرأة طويلة القامة كان يظهر هناك أحياناً وشاهد الفتى لأول مرة نوافذ الفنار المضيئة والتي ما زالت فوقه. وخطف بصره من الضوء برهة وذلك لأن المولد الكهربائي في القرية تعطل منذ وقت طويل ولذا فهو معتاد على ضوء المصابيح الغازية الخافت في القرية.

وغالباً ما كان الفتى يحضر السمك بهذه الصورة إلى المنار، وهو يشعر بأن عليه أن يقدم الامتنان والشكر لعامل المنار، وكان صاحبنا قد أدي امتحانه النهائي في العام الماضي وبدا كما لو أن تخرجه سيتأخر سنة، إلا أن أمه كانت تمر بالفنار في رحلاته المتكررة لجمع حطب للنار من الجبل المجاور فتعرفت بسيدة المنار ولجأت إليها الآن. وأوضحت لها أنها لا تستطيع أن تعول أسرتها أكثر من ذلك إذا تأجل تخرج ولدها. لذا أخبرت زوجة عامل المنار زوجها فذهب لمقابلة صديقه ناظر المدرسة وبفضل تدخله الودي تخرج الولد في الموعد المقرر.

وأصبح الولد صياداً عقب أن فرغ من دراسته، ومنذ ذلك الحين عكف على أن يحمل جزءاً من حصيلة الصيد اليومية إلى المنار بين الفينة والفينة، كما أنه قام بمهمات صغيرة لعامل المنار، وأصبح محبوباً لدى عامل المنار وزوجته.

وكان المكان الذي يقيم به حارس المنار إلى جانب سلم حجري يؤدي إلى المنار نفسه، وله حديقة خضروات صغيرة، وعندما اقترب الظلام لمح خيال الزوجة يتحول فوق أرض المطبخ، وكانت على ما يبدو تعد طعام العشاء.

وأخطرها بقدومه بأن رفع صوته من الخارج ينادي أهل البيت ففتحت له الزوجة الباب وقالت:

– أهذا أنت يا شنجي سان؟!

وقدم الشاب لها السمكة دون أن ينبس ببنت شفة، فأخذتها منه، وراحت تقول بصوت عال مستخدمة اسم أسرة الغلام:

– يا أبت لقد أحضر كوبو سان سمكة لنا.

ومن غرفة أخرى ارتفع صوت حارس الفنار الطيب مجيباً:

– شكراً لك أدخل يا شنجي.

وكان الغلام لا يزال واقفاً متردداً عند باب المطبخ، ووضعت السيدة السمكة فوق صفيحة مطلية بيضاء، حيث رقدت تلهث في ضعف، والدم ينزف من خياشيمها ويلطخ جلدها الأبيض الرقيق.

الفصل الثاني

في صبيحة اليوم التالي استقل "شنجي" زورق رئيسه كالمعتاد وانطلق للصيد، وكانت السماء عند انبلاج نور الصباح مظلمة، تتلألأ على صفحة مياه البحر الساكنة، والوصول إلى مناطق الصيد تستغرق ساعة.

وكان "شنجي" يرتدي فوقه ميدعا "فوطة" من المطاط اسود يمتد من صدر صديريته إلى رأس حذائه المطاط الذي يصل إلى ركبتيه، وكان يلبس قفازين من المطاط طويلين ووقف شنجي في وسط الزورق يحدق أمامه نحو وجهتهما في الباسفيك، بعيداً تحت السماء في الصباح، ومرت أمام مخيلته ذكرى الليلة السابقة .. الفترة بين مغادرته المنار وذهابه للنوم.

وكانت أم شنجي وأخوه ينتظران أوبته في غرفة صغيرة يضيئها مصباح خافت يتدلى فوق موقد الطهي، وكان أخوه في الثانية عشرة، أما الأم فإنها _منذ العام الأخير في الحرب، عندما قتل زوجها في هجوم عنيف، وحتى شب "شنجي" واستطاع أن يعمل،_ ظلت تعول الأسرة وحدها من تكسبها كامرأة تغوص في البحر بحثاً عن اللؤلؤ وقالت الأم:

– هل ابتهج حارس المنار؟

فقال الغلام: نعم وقد قال لي: ادخل ثم دعاني إلى احتساء شيء يدعونه الكاكاو.

– ما هو هذا الكاكاو؟.

– إنه مسحوق حبوب غريبة.

ولم تكن الأم تعلم شيئاً عن الطهي، فهي تصنع السمك وتقطعه شرائح، وهو نيئ، وأحياناً تضع عليه الخل أو تسلقه وتشويه كما دون أن تنظفه، ونظراً لأنها لم تنظف السمك بطريقة مناسبة على الإطلاق وحدت الأسرة نفسها ملوك الرمل والحصى والسمك.

وانتظر شنجي أثناء الطعام على أمل أن تقول أمه شيئاً عن الفتاة الغريبة ولكن إذا كانت أمه امرأة لا تشكو فهي بالتالي لا تهتم بالثرثرة.

وبعد العشاء ذهب "شنجي" مع أخيه إلى حمام عام، وانتظر هنالك أن يسمع شيئاً عن الفتاة، ونظراً لأن الوقت كان متأخراً فقد كان المكان خالياً، والماء قذراً، وكان رئيس جمعية الصيادين ومدير البريد يتناقشان في السياسة، وهما يستحمان، وأصواتهما ترتفع حتى السقف. وحياهما أخوه بصمت وذهب إلى ركن قصي ليأخذ ماء ساخناً من الحوض.

وبغض النظر عن الفترة التي انتظرها "شنجي" وأرهف أذنيه فإن الرجلين لم ينتقلا من الكلام في السياسية إلى الحديث عن الفتاة، وفي غضون ذلك فرغ أخوه من الاستحمام بسرعة غير عادية وخرج.

وتبعه "شنجي" وسأله عن سبب هذه السرعة فقال له أخوه هيروشي أنه كان مع أصدقائه يلعبون اليوم، وقد ضرب ابن رئيس الجمعية التعاونية على رأسه بسيف خشبي فجعله يصرخ.

وقد جرت العادة أن يذهب "شنجي" إلى النوم بسهولة إلا أنه في الليلة الماضية لم ينم لأول مرة. ولم يستطع الغلام أن يتذكر يوماً مرض فيه طوال حياته. لهذا اضطجع يتأمل ويتساءل أهذا هو ما يدعوه الناس بالمرض.

وظل ذلك القلق الغريب يعتريه في الصباح، غير أن المحيط الواسع كان يمتد بعيداً عن مقدمة السفينة حيث كان يقف، وبالتدريج أخذ منظره يملأ جسده بقوة الكد المألوف التي يشعر بها من يوم لآخر ودون أن يتعرف عليها شعر بالأمان مرة أخرى. وكان الزورق يهتز ببخار المحرك، وكانت ريح الصباح القارس تلفح وجنات الغلام.

ولو نظرت إلى أعلى المنحدر يمين السفينة لما رأيت منارة الفنار، وعلى طول الشاطئ تحت غصون أشجار الصنوبر السمراء في أوائل الربيع كان منظر الذين يعبرون ممر أيراكو أبيض اللون رائعاً في صفحة الصباح الداكنة، وكانت هناك عقدتان تغمرهما المياه، وتجعلان الماء في المجرى في حركة اضطراب دائمة، وكان يلزم من سفينة الركاب التي تعبر المحيط أن تجتاز الممر ببراعة بين هاتين العقدتين لأن الممر ضيق جداً، غير أن براعة قائد "تايهي مارو" جعلها تعبر الممر ببساطة، خلال التيار، وكان عمق مياه

المجرى يتراوح بين ١٨ ، ١٠٠ قامة أي نحو "٦ أقدام" ولكن فوق العقدتين كان العمق من ١٣ الى ٢٠ قامة وهنا ومن هذه البقعة حيث العوامات تحدو الممر الممتد إلى الباسفيك أغرقت أعداد لا حصر لها من الإخطبوط وأن ٨٠ ٪ مما تصطاده الجزيرة سنوياً هو من الإخطبوط. وكان موسم صيد الإخطبوط الذي يبدأ في نوفمبر على وشك الانتهاء ليحل محله موسم صيد السمك الذي سيبدأ باعتدال فصل الربيع، وكانت نهاية الموسم والوقت الذي تنتظر فيه الأواني الفرصة الأخيرة لما يسمى "بالإخطبوط الهارب" الذي يفر إلى أعماق الباسفيك هرباً من المياه الباردة في خليج أيزي.

وبالنسبة لكبار الصيادين فإن ارتفاع كل بوصة وهبوطها من عمق المياه الضحلة على شاطئ الجزيرة أشبه عندهم بحدائق منازلهم، فهم يقولون أن الشخص الأعمى هو الذي لا يستطيع أن يرى أرض المحيط، وهم يعرفون وجهتهم من بوصلتهم البحرية، وبمراقبة خط الجبال على الرءوس البعيدة يستطيع البحارة أن يحددوا مكانهم بالضبط، وبعد أن يصلوا إلى وجهتهم فإنهم يعرفون دون خطأ طبيعة المحيط الواقعة تحتهم.

وترسل حبال لا عدد لها إلى قاع المحيط، وقد ربط بكل منها أكثر من مائة آنية، والصنابير المربوطة بالحبال تهتز مع ارتفاع المد وانخفاضه، وكان قبطان الزورق هو الذي يتقن فن صيد الإخطبوط، وأما شنجي والصبي الآخر "ريوجي" فكانا يستخدمان أجسامهما القوية في هذا العمل الشاق.

وكان وجه "جوتيشي أويااما" كبير الصيادين وصاحب الزورق "تايهي مارو" مثل الجلد الذي نفحته رياح البحر، وكانت تجاعيد يديه مختلطة بجروح من الصيد وقد أحرقتها الشمس حتى أعماقها.

وكان رجلاً قلما يضحك ولكنه طيب الروح هادئ النفس، وحتى صوته المرتفع الذي يستخدمه عندما يصدر أوامره في الزورق أن يرتفع ، وليست فيه رنة غضب، ونادراً ما يغادر مكانه أثناء الصيد فوق منصة القيادة، وبين الحين والحين كان يرفع أحدى يديه من على المجداف ليدير المحرك.

وعندما وصل الزورق إلى مكان الصيد وجدوا عدداً كبيراً من زوارق الصيد الأخرى، لم يشاهدوها حتى الآن، فبادلوها تحية الصباح، وعندما وصلوا إلى مكان صيدهم غض جوكتيشي من سرعة المحرك، وطلب من شنجي أن يدلي حزاماً من المحرك إلى أسطوانة فوق حافة السفينة، وكانت الأسطوانة تدير بكرة تمتد فوق حافة السفينة، ويوضع فوق البكرة أحد الحبال التي تربط بها أواني الإخطبوط، ويسير الزورق ببطء وراء الحبل الذي ينزل طرفه في الماء، ويبقى الآخر في البكرة، ويأخذ الولدان دورهما في أف البكرة لأن الحبل قد يفلت إذا لم يعتن به أحد.

وكانت الشمس الملتهبة تختفي وراء السحب في الأفق، وكان هناك اثنان أو ثلاثة من غربان البحر تطير فوق صفحة الماء، وإذا انظر المرء إلى

الجزيرة رأى سفوح جبالها تتلألأ بيضاء داكنة غيرت لونها قاذورات أسراب غربان البحر.

وكانت الريح قارسة البرودة، ولكن عندما كان "شنجي" يجذب الحبل الأول نحو البكرة حدق في البحر الداكن وشعر في أعماقه بطاقة تغلي لذلك الكد الذي سيجعل حبات العرق تبلل جسده، وبدأت البكرة تلف، وكان الحبل المبلل الثقيل يأتي من البحر، واستطاع شنجي من خلال قفازه الرقيق أن يشعر بالحبل البارد الغليظ الذي يمسكه بين يديه، وكان الحبل يلقي برذاذ من الماء المالح أثناء التفافه حول البكرة.

وسرعان ما ارتفعت أواني الإخطبوط إلى السطح، ولونها أحمر قائم، ووقف ريوجي ينتظر عند البكرة، وإذا كانت الآنية خاوية فأنه يفرغ الماء منها بسرعة ولا يدعها ترتطم بالبكرة، أو يعيدها إلى الحبل الذي يتدلى إلى الماء مرة أخرى.

ووقف شنجي ورجلاه غير مضمومتين فكانت قدمه فوق حافة الزورق، وهو يواصل شد الحبل على الرغم مما قد يكون في البحر، وكان يجذب الحبل بيديه إلى أن يصل، وقد فاز شنجي بالغنيمة غير أن البحر لا يستسلم، وهو يرسل الأواني وكلها خالية.

وتم سحب حوالي عشرين آنية في مراحل من السبع إلى العشر من الياردات على طول الحبل، وكان شنجي هو الذي يسحب، وأما ريوجي

فكان يفرغ الماء من الأواني وكان جوكتيشي يضع يده على المجداف، ولم يغير من قسمات وجهه. وهو يرقب الأولاد في عملهم في صمت.

وبدأ العرق يبلل ظهر شنجي، وحباته تتجمع فوق جبهته

التي تلفحها ريح الصباح.

واحمرت وجنتاه، ثم بددت الشمس السحب، وألقت ظلالاً داكنة عند أقدام الغلامين التي تتحرك بسرعة.

وكان ريوجي يقف ووجهه نحو القارب، وهو قد فك لتوه الآنية التي خرجت من البحر، وأخرج جوكتيشي رافعة لفلك البكرة، ولأول مرة نظر شنجي إلى البكرة.

وأدخل ريوجي قضيباً في الآنية، كالشخص الذي أستيقظ من سباب طويل خرج إخطبوط من الآنية إلى سطح الزورق، وبسرعة نزع الغطاء عن سلة خيزران موضوعة قرب غرفة المحرك وادخل إليها صيد ذلك اليوم.

وقضى الزورق سحابة ذلك اليوم في صيد الإخطبوط، وكان صيده القليل خمسة من الإخطبوط، وهدأت الريح وأشرقت الشمس بأشعتها الزاهية، ومر الزورق بمجرى ايراكو ويمم عائداً إلى خليج أيزي لكي يقوم بشيء من الصيد في المياه المحرمة علي الصيادين هناك.

ولكي يقوم الزورق بصيده عن طريق الجرف ربط ملاحوه عدداً من الخطاطيف الكبيرة فوق قضيب ثم سيروا الزورق وسحبوه عبر الخليج مثل الجاروف، وبعد فترة من الوقت سحبوا الجرف ووجدوا فيه سبع سمكات من أنواع مختلفة.

ونزع شنجي السمك من الصنانير بيده

وجاء وقت الغداء فقام جوكتيشي بتقطيع أربع سمكات إلى شرائح، وفي أثناء إعدادها للطعام تركوا الزورق للريح الهادئة.

وقال جوكتيشي فجأة:

– ما رأيك في إعادة العم "تيروميانا" لابنته القرية.

فقلت:

– لا أعلم أن كان فعل

فقال الآخر:

– ولا أنا.

– وهز الاثنان رأسيهما وواصل جو كتيشي كلامه بقوله:

– أن للعم تيرو أربع بنات وولد، وقد قال أن لديه عدداً كبيراً من البنات. لذلك زوج ثلاثاً منهن وترك الرابعة ثم أرسلها إلى خارج القرية، واسمها "هاتسو" وقد عاشت مع أسرة من النسوة اللاتي يغصن بحثاً عن اللؤلؤ في أوزاكي في شيما. ولكن بعد ذلك توفى ابنه ماتسو نتيجة مرض أصابه في رئته في العام الماضي، وشعر العم تيرو بالوحدة إذ كانت زوجته قد انتقلت روحها إلى بارئها. لهذا استدعى ابنته "هاتسو" وأعادها إلى رحاب الأسرة وقرر أن يختار لها زوجاً لكيلا يندثر اسمه.

وكانت "هاتسو" جميلة فعلاً، ولاشك أن هناك عدداً من الشبان يريدون الزواج منها وما قولكما أنتما أيها الشابان؟

ونظر كل من شنجي وريوجي إلى صاحبه وضحكا، وكان في وسع كل منهما أن يخمن أن صاحبه قد أحمر من الخجل إلا أن الشمس لفحت بشرتهما حتى صار احمرار وجهيهما لا يظهر للعيان.

واستحوذ على تفكير شنجي هذا الكلام عن هذه الفتاة، وصورة الفتاة التي شاهدها على الشاطئ أمس، وتذكر في نفس اللحظة وقلبه يكاد يغوص بين جنبيه وضعه البسيط في الحياة، وجعلته الذكرى يرى الفتاة التي شاهدها أمس فقط وكأنها بعيدة عنه الآن تماماً، لأنه أدرك الآن أن أباها هو تيروكيتشي مياتا صاحب سفينتي الشحن اللتين استأجرتهما شركة "ياماجاوا" للنقل وهما أوتاجيما مارو ١٨٥ طناً وهاروكازي مارو "٩٥ طناً" وهو رجل غني يهتز شعره الأبيض كشاربي الأسد عند الغضب.

وكان شنجي من الأشخاص المتزنين دائماً، وقد أدرك أنه ما زال في الثامنة عشرة وأنه لم يحن الأجل لأن يفكر في النساء. وعلى خلاف بقية شباب المدينة الذين يمتلئون إثارة وحيوية فأن أوتاجيما لا توجد فيها قاعة واحدة لكرة العصا ولا حان ولا ساقية، وكان ما يحلم به هذا الشاب أثناء النهار هو أن يمتلك الزورق البخاري ذات يوم ويقوم بالملاحة الساحلية مع أخيه الأصغر.

ومع أن المحيط الشاسع كان يحيط به إلا أن شنجي لم يراوده أن يرجو المستحيل فيقوم بمغامرة كبرى عبر البحار، وكانت فكرته عن الصياد في البحر تشبه فكرة المزارع نحو أرضه، فالبحر هو المكان الذي يكسب فيه قوت يومه، وهو حقل من الأمواج حيث تنمو فيه بدلاً من القمح والأرز أمواج لا شكل لها تترنح فوق زرقة التربة المثمرة.

ومع ذلك عندما انتهى الصيد في ذلك اليوم أحس الغلام عندما شاهد سفينة شحن بيضاء تبحر باتجاه سحب المساء التي تكسو الأفق في قلبه بمشاعر غريبة إذ من ذلك العالم البعيد اعتراه إحساس ضخم لم يشعر به من قبل، وقد فوجئ بإدراكه لهذا العالم المجهول، وكأنه رعد بعيد يهدر من بعد ثم يتلاشى!

ووقف الغلام عند حافة السفينة، وقد وضع منشفة حول رأسه وأدار بصره بعيداً عن سحب المساء وهز رأسه قليلاً.

الفصل الثالث

وفي تلك الأمسية حضر شنجي اجتماعاً عادياً لرابطة الشبان، وهذا الاسم يطلق الآن على ما كان يسمى قديماً ببيت النوم، وهو مكان للنوم مخصص للشبان غير المتزوجين في الجزيرة، وحتى في الوقت الحاضر فأن كثيراً من الشبان يفضلون النوم في كوخ رابطة الشبان القائم على الشاطئ بدلاً من النوم في منازلهم، ففي الرابطة يناقش الشبان أموراً مثل المدارس والصحة ووسائل إنقاذ السفن التي غرقت، وعمليات الإنقاذ في البحر، ورقصات الأسد، وعيد المصباح، والمهام التي تخص الشبان في القرية منذ القديم، وهكذا يشعرون أنهم جزء من حياة الجماعة، وكانوا يلقون متعة في ذلك الثقل الذي يسفر عن تحمل أعباء الناضجين من الرجال.

وكانت الريح تهب من البحر، وتهز النوافذ المغلقة، وتجعل المصباح يتأرجح، فيجعل المكان مضيئاً تارة ومعتماً تارة أخرى، وفى الخارج كان البحر يهدر على مقربة منهم، وهدير الموج يكشف عن قلق الطبيعة وقوتها في الوقت الذي كان فيه المصباح يهتز فوق الوجوه المرحة للشباب.

وعندما دخل شنجي المكان كان هناك صبي يركع على رجليه ويديه تحت المصباح بينما راح صديق له يقص شعره، بمقرض عتيق مصدأ للشعر، وأبتسم شنجي وجلس على الأرض وظهره للجدار، وشبك يديه حول ركبتيه، وظل صامتاً كالعادة يصغى لما يقوله الآخرون.

وكان الشبان يقصون على بعضهم البعض أنباء الصيد الذي قاموا به، ويضحكون ضحكات عالية، ويتبادلون الشتائم، وكان هناك غلام محب للقراءة يقرأ بشغف إحدى المجلات القديمة التي كانت في الكوخ، وانكب آخر على قراءة كتاب ساخر بحماس أقل وهو يمسك الصفحات بأصابع تدل مفاصلها على أنه لشخص يفوقه سناً، وكان يقرأ بعض الصفحات لمدة دقيقتين أو ثلاث مرة واحدة قبل أن يدرك المعنى ثم يقهقه ضاحكاً

وسمع شنجي في هذا المكان حديثاً عن الفتاة للمرة الثانية، وطرقت أذنيه جملة قالها صبي فغر فاه ليضحك ثم قال:

– أنها هاتسو .. أنها ..

ولم يسمع شنجي بقية الجملة نظراً لأن الضوضاء انبعثت من جانب آخر من الغرفة، وضحكات من جماعة تحيط بالغلام المذكور.

ولم يكن شنجي يهتم بالأمور، إلا أن هذا الاسم خاصة مثل اللغز المحير ظل مستحوذاً على تفكيره إذ عند محض ذكر الاسم تحمر وجنتاه ويدق قلبه، وقد كان شعوراً غريباً أن يجلس هناك من غير حراك، وشعر بذلك التغير الجسدي في أعماقه، والتي لم يكن يشعر بها إلا إبان العمل الشاق.

ووضع شنجي يده على خده كي يتحسسه، وكانت سخونة وجنتيه تبدو وكأنها لشخص غريب عنه، وكانت لطمة لكبريائه أن يشعر بوجود

أشياء في داخله لم يكن يشك في وجودها من قبل، وزاد من حرارة وجنتيه شعوره بالغضب.

وكان الشبان ينتظرون قدوم رئيسهم "ياسو كاواموتو" وعلى الرغم من أن ياسو كان في التاسعة عشرة إلا أنه كان ابن أسرة كبيرة في القرية ، ولديه من القوة ما يجعل الآخرين يسيرون وراءه، ومع أنه كان شاباً إلا أنه كان يعلم كيف يحيط نفسه بهالة من الأهمية، وغالباً ما كان يحضر متأخراً إلى الاجتماعات.

وفتح ياسو الباب بضربة عنيفة، ودخل الغرفة، وكان بديناً وورث الملامح الحمراء عن أبيه السكير، وكان وجهه ساذجاً في مظهره، إلا أن حاجبيه الدقيقين يجعلان نظرته تتسم بالدهاء، وتكلم بطلاقة دون أن يستخدم اللهجة المحلية:

– آسف لتأخري: حسن، ألا لا تضيع وقتاً، هناك خطط لابد من وضعها من أجل خطط الشهر المقبل.

وبعد أن قال ذلك جلس على المقعد وفتح دفتر الملاحظات، وأدرك الجميع أنه في عجلة من أمره. وقال:

– حسبما تقرر في الاجتماع الأخير، هناك مهمة عقد اجتماع للاحتفال برابطة العصر القديم، وجمع الحجارة لإصلاح الطرق، وهناك أيضاً مسألة تنظيف المجاري للتخلص من الجرذان، وهذا طلب من جمعية

القرية، سنقوم بهذا الأمر كالمعتاد في يوم عاصف عندما لا يكون في مقدور الزوارق أن تخرج للصيد. ولحسن الحظ فأن مطاردة الجرذان يمكن أن تتم في أي جو، ولا أعتقد أن الشرطة ستطاردنا إذا قتلنا عدداً من الجرذان خارج المجاري.

وضحك الجميع وراحوا يصيحون:

–أخبرهم ••• أخبرهم ..

وبعد ذلك قدمت عروض لدعوة طبيب المدرسة كي يلقي عليهم محاضرة عن حفظ الصحة، ولإجراء مسابقة في الخطابة، ولكن التقويم القمري القديم الخاص بالسنة الجديدة انتهى، وضاق الشبان ذرعاً من هذه الاجتماعات بحيث كانوا غير متحمسين لهذين العرضين.

ثم تحولوا إلى لجنة وجلسوا للحكم على مزايا نشرتهم التي يصدرونها باسم الجزيرة اليتيمة، وكان الغلام الشغوف بالقراءة قد وضع أربعة أسطر من شعر فيرلين في نهاية مقال نشر في العدد الأخير، وأصبحت هذه الأبيات هدفاً شاملاً لنكاتهم .

لست أعرف لماذا

تطير روحي المنتحبة

عبر البحر متشنجة متشنجة

بأجنحة متحمسة لا تهدأ.

– ماذا تعني بكلمة متشنجة؟

– أن تعنى متشنجة؟

– ربما أنها غلطة والمقصود ترفرف.

– هو ذلك لو قلت أنها ترفرف فسيكون للبيت معنى.

– من هو فيرلين هذا؟

– أنه من أشهر شعراء فرنسا!

– وماذا تعرف عن شعراء فرنسا؟ ربما انك جئت بهذا كله من أغنية شعبية.

وانفض الاجتماع كالعادة بتبادل الشتائم.

وعجب شنجي للعجلة التي كان عليها "ياسو" رئيس الرابطة، فاستوقف صديقاً له وسأله:

فقال الصديق: ألا تعلم؟ أنه مدعو لحفل العم "تيرومياتا" الذي يقيمه احتفاء بعودة ابنته.

وكانت العادة أن يتوجه شنجي إلى المنزل مع الآخرين وهم يتجاذبون أطراف الحديث ويضحكون، ولكنه في هذه المرة وبعد أن سمع بنبأ الحفل الذي ما كان يمكن أن يدعى إليه انسل من بين أصدقائه وسار وحيداً إلى الشاطئ حيث السلالم الحجرية المؤدية إلى معبد ياشيرو.

وراح يتطلع إلى بيوت القرية، وقد شيدت فوق بعضها البعض على منحدر مائل فرأى الأضواء تنبعث من منزل "هياتا" وكان الضوء في القرية ينبعث من مصابيح غازية، إلا أن هذا الضوء كان يبدو مختلفاً وأكثر بريقاً، وحتى وان كان لا يستطيع أن يرى المشهد الحقيقي للمأدبة إلا أنه كان يستطيع أن يتخيل كيف أن شعاع المصابيح هناك لابد أنها تجعل حواجب الفتاة وأهدابها تلقي ظلالاً على وجناتها.

ووصل إلى أسفل السلم الحجري، فنظر شنجي إلى أعلى السلم الذي تتخلله ظلال غصون الصنوبر، وبدأ يتسلق، وكان حذاؤه الخشبي يحدث صوتاً جافاً وكان المكان خالياً من حول المعبد، والضوء في منزل الكاهن مطفئاً.

بل عندما اجتاز شنجى مائتي درجة لم يكن صدره الكثيف يدق عندما وصل المعبد ووقف قبالته يملأ قلبه الاحترام.

ووضع شنجي قطعة نقود في صندوق النذور، وفكر برهة ثم وضع قطعة أخرى، وكان صوت يديه المتشابكتين وهما تتضرعان إلى الآلهة يدوي في حديقة المعبد، وصلى شنجي في قرارة نفسه.

– يا رب انشر الهدوء في البحار، واجعل صيدنا وفيراً، ولتعش قريتنا في خير وبحبوحة، مازلت شاباً، ولكن في الوقت الملائم اجعلني صياداً بين الميادين، زدني معرفة بخبايا البحر، وبطرق صيد السمك، وقادة الزوارق، ومعرفة الطقس، وبكل شيء، واجعلني رجلاً بارعاً في كل أمر احم والدتي الحنونة وأخي الذي لا يزال صبياً، وعندما تذهب أمي إلى البحر في موسم الغوص احم جسدها من الأخطار.

وهناك طلب آخر. أريد أن أتقدم به إليك، في يوم ما امنح شخصاً مثلي عروساً جميلة طيبة، مثل ابنة "تيرو كيتشي مياتا" التي عادت إلى القرية.

وهبت الريح وأحدثت أغصان الصنوبر اهتزازاً قوياً، وكان صوت الريح هو الذي احدث أصداء مهيبة في الظلمة التي توجد داخل المعبد.

ربما كان رب البحر قد قبل صلاة هذا الغلام.

وتطلع شنجي إلى السماء التي ازدانت بالكواكب وتنفس الصعداء، ثم فكر ولكن ألا يمكن أن تعاقبني الإلهة على هذه الصلاة التي تتوخي الأثرة؟!

الفصل الرابع

ومرت حوالي أربعة أو خمسة أيام، وكانت الريح تندر بهبوب عاصفة، وكانت الأمواج ترتطم بحاجز ميناء أوتاجيما، وكان البحر البعيد الواسع يعلوه الزبد وأما السماء فكانت صافية ولكن شدة الريح جعلت الزوارق لا تخرج إلى الصيد وطلبت أم شنجي من ولدها أن يسدى إلها يداً فقد كانت نسوة القرية قد جمعن حطباً للنار من فوق الجبل، وتركنه مخزوناً هناك في برج مراقبة عسكري قديم، وقد وضعت أمه علامة حمراء فوق الحطب الذي جمعته، ونظراً لأنه فرغ من عمله في رابطة الشباب في نقل الحجارة لتشييد الطريق عند الظهر، لهذا طلبت منه أن يحضر لها الحطب من الجبل.

وحمل شنجي الوعاء الخشبي الذي ينقل فيه الحطب، وانطلق ميمماً شطر الجبل، وكان الطريق يمر عبر المنار، وعندما جاوز "منحدر السيدة" هدأت الرياح كان هذا من سحر ساحر.

وكان الهدوء يخيم على منزل حارس المنار بصورة توحي بأن سكانه نائمين في رابعة النهار، ورأى ظهر الحارس وهو جالس جوار مقعد في المنار، وكان صوت الموسيقى ينبعث من المذياع. وكان الهدوء يخيم على الجبل، ولا يوجد أدنى أثر لإنسان، ولا يوجد كلب تائه في المكان، وبسبب أمر من الآلهة التي تحرس الجزيرة لم يكن كلب تائه في أنحاء الجزيرة ناهيك

عن الكلاب الأليفة، ونظراً لأن الجزيرة كلها على سفح جبل، والأرض بسيطة فلا توجد خيول ولا ماشية للنقل، وأما الحيوانات المنزلية فكانت القطط.

وصعد الغلام إلى قمة الجبل، وكانت أعلى قمة في أوتاجيما، وقد انتشرت فوق الجبل الأشجار والأعشاب، بحيث لا يوجد أي منظر، ولم يكن هناك سوى صوت البحر يهدر عبر النبات، وكانت الأشجار والأعشاب قد سدت الممر الذي يؤدي إلى الجانب الآخر، وكان لابد للإنسان من أن يقوم بدوره لكي يصل إلى برج المراقبة.

وظهر أمامه خلف أشجار الصنوبر برج المراقبة المؤلف من ثلاثة أدوار وبدت الخرائب البيضاء قائمة في هذا المشهد الصامت المهجور.

وفي الأيام السالفة كان الجنود يقفون في شرفة الدور الثاني، وهم يضعون المنظار فوق أعينهم، ويرقبون هدف المدافع التي كانت تطلق على الأهداف من جبل كوناكا على الطرف الآخر من رأس أيراكو، وكان الضباط ينادون من داخل البرج متسائلين أهذه القنابل تصيب الهدف ويرد الجنود عليهم محددين المدى. وأستمر هذا الحال حتى منتصف الحرب، وكان الجنود يلقون اللوم على شخص ما لأنه سبب نقص الزاد.

ودخل الغلام الدور الأرضي للبرج، وكان هناك جبل من الأخشاب في شكل حزم، ويبدو أن هذا الدور كله يستخدم مخزناً، وكانت نوافذه صغيرة، وكانت بعض الألواح الزجاجية غير مهشمة، ودخل الغلام وعثر

على العلامة التي حددتها له أمه، على الضوء الخافت المنبعث من النوافذ، وكتبت عليها "تومي كوبو" فحمل الأخشاب على ظهره، ولم يكن قد زار البرج منذ عهد طويل، وشعر بالاستياء لأنه سيرحل سريعاً، فترك حمله حيث هو، وكان على وشك أن يصعد السلم.

وسمع صوتاً من فوق رأسه كما لو كان حجراً وقطعة من الخشب يتضاربان، فأنصت الغلام، ولكن الصوت انقطع، لابد أنه كان يتخيل أشياء.

وصعد إلى الطابق العلوي، والدور الثاني وشاهد البحر من نوافذ البرج التي تهشم زجاجها حتى حديد الشرفية لم يكن موجوداً، وكانت بقايا كتابات الجنود بالطباشير ظاهرة على الجدران.

وواصل شنجي صعوده، وتوقف لينظر إلى ساري علم مكسور من إحدى نوافذ الدور الثالث، وفي هذه المرة تأكد لديه أنه سمع صوت شخص يتنهد فانطلق يجري بخفة حتى السطح وهو خائف.

ولكن الشخص الذي خاف كان الفتاة التي فوق السطح لأنها شاهدت فتى أمامها على حين فجأة، لا تدري من أين جاء، ودون أن تسمع وقع أقدامه، وكانت تلبس قبقاباً خشبياً وتبكي ولكنها انقطعت عن البكاء، ووقفت ترتجف خوفاً، وكانت الفتاة هي هاتسو.

أما الغلام فما كان يحلم بمثل هذا اللقاء السعيد، ولم يصدق عينيه ووقف الاثنان وقد ملكهما الارتباك، مثل دابتين التقيا على حين غفلة في الغابة، فشخص بصر كل منهما إلى عيني الآخر، ومشاعرهما تتردد بين الحذر والفضول.

وفي النهاية تكلم شنجي فقال:

– أنت هاتسو؟ أليس كذلك؟

فهزت هاتسو رأسها على غير إرادتها، ونظرت إليه في عجب لأنه عرف اسمها ولكن شيئاً حول عيني الغلام الصارمتين السوداوين، والذي كان يبذل جهداً لكي يبدو جريئاً ذكرها بوجه شاب حدق فيها على الشاطئ ذلك اليوم:

وقال:

– أنت تبكين؟ أليس كذلك؟!

– نعم أنا كنت أبكي.

وسألها شنجي كرجل الشرطة؛

– لم تبكين؟

وجاء ردها بسرعة غير متوقعة، فقد كانت زوجة حارس المنار تعطي دروساً في الأتيكيت وإدارة شئون المنزل لفتيات القرية اللواتي يردن ذلك، واليوم كانت هاتسو ستحضر الدرس لأول مرة، ولكنها جاءت مبكرة، فقررت أن تصعد الجبل خلف المنار فضلت الطريق.

وفي تلك اللحظة حلق طائر فوق رأسيهما، واستبشر شنجي بذلك خيراً، ومنذ ذلك الحين انطلق لسانه، واستعاد صفة الرجولة المعتادة فأخبرها بأنه يمر بالمنار في طريقه إلى المنزل وسيذهب معها إلى ذلك المكان.

فابتسمت هاتسو، ولم تحاول أن تمسح دموعها التي انهمرت على وجنتيها وبدا وجهها كالشمس التي أشرقت بعد هطول الأمطار، وكانت ترتدي صديريا أحمر اللون، وجوارب قرمزية، وهو النوع الذي تلبسه الفتيان مع الفتيات.

ومالت "هاتسو" فوق السور عند نهاية السطح، وراحت تنظر إلى البحر ثم سألت:

– ما هذا المبنى؟

وذهب شنجي إلى السور وظل على مسافة قصيرة من الفتاة، وأجاب:

– لقد كان برجاً لمراقبة الأهداف، وكانوا يرقبون من هنا سقوط قنابل المدافع.

ولم تكن ثمة رياح في هذا الجانب من الجزيرة الذي يخفيه الجبل، وكانت البقعة التي تضيئها الشمس من المحيط الهادي تمتد أمام ناظريهما. والمنحدر المليء بأشجار الصنوبر يهبط إلى البحر، وصخوره بيضاء من روث الغربان، وكان الماء قرب قاعدة المنحدر داكن اللون من الأعشاب التي تنمو في أرض المحيط.

وأشار شنجي إلى صخرة عالية قرب الشاطئ حيث كانت ترتطم الأمواج وترسل سحباً من الرذاذ.

وقال:

– هذه تسمى "الجزيرة السوداء" حيث كان الشرطي سوزوكي يصطاد عندما ابتلعته الأمواج.

وكان السرور يغمر شنجي إلا أن الوقت كان يقترب لكي تذهب هاتسو إلى الفنار، ووقفت هاتسو من انحناءاتها فوق السور، والتفتت إليه قائلة:

– سأذهب الآن.

ولم يحر شنجي جواباً، واعتلت وجهه نظرة دهشة، ولمح خيطاً أسود اللون قد انطبع فوق الصديري الأحمر الذي ترتديه.

وتتبعت هاتسو نظرته فشاهدت البقعة المتسخة في المكان الذي انحنت فيه بصدرها فوق السور، فمالت برأسها وراحت تنفض صدرها بيدها، وتحت الصديري الذي كان يخفي نهدين قويين اهتز نهداها برفق نتيجة التنظيف الذي راحت تقوم به، وأزيلت البقعة المتسخة.

وتقدمها شنجي عبر السلم الحجري، وكان قبقابها يحدث أصواتاً واضحة، خفيفة يتردد صداها من جدران الخرائب، وتوقفت الأصوات عندما وصل الاثنان إلى الدور الأول.

فنظر سنجي خلفه فوجد الفتاة تقف مغرقة في الضحك.

– ما الأمر؟

– أنني سوداء ولكنك أسمر اللون.

– ماذا؟

– لقد أحرقت الشمس بشرتك.

وضحك الفتى من هذا الرد الذي لا معنى له، وواصل الهبوط، وهما أن يغادرا البرج عندما وقف فجأة، ودخل البرج مسرعاً إذ نسى حزمة الحطب التي كلفته أمه بإحضارها.

وفي طريق العودة نحو المنار كان شنجي يسير في المقدمة، حاملاً الحطب على ظهره، وأثناء السير سألته الفتاة عن اسمه فعرفها بنفسه لأول مرة، ولكنه توسل إليها ألا تذكر اسمه لأحد أو تقول شيئاً عن مقابلتها له هنا. لأنه يعلم حدة السنة القرويين، ووعدته هاتسو بذلك، وهكذا كان خوفهما الذي في محله من حب القرية للثرثرة يعتبر أن اللقاء البريء سراً بينهما.

وسار شنجي صامتاً وليست لديه فكرة عن كيف سيلتقي بها ثانية، ثم وصلا إلى البقعة التي تطل على الفنار، وأشار إلى منعطف قصير يؤدي إلى مؤخرة مقر حارس المنار وودعها ثم تعمد أن يسلك الطريق الطويل إلى القرية.

الفصل الخامس

وكان الفتى حتى هذه اللحظة يعيش حياة هادئة قانعة مع أنه فقير، ولكن ابتداء من ذلك الوقت أصبح يضطرم قلقاً كما أنه مشتت الفكر، وسقط صريع شعور بأنه ليس فيه ما يجد استجابة عند هاتسو، وكان صحيح الجسم لم يصب بأي مرض، ويستطيع أن يدور حول أوتاجيما سباحة خمس مرات بدون توقف، وهو على يقين من أنه يستطيع مقاومة أي إنسان من ناحية القوة البدنية ولكنه لا يعتقد أن مثل هذه الصفات قد تثير أوتار قلب هاتسو.

ولم تتهيأ له فرصة أخرى للقاء هاتسو، وكان كلما عاد من الصيد راح يتعقب الشاطئ بحثاً عنها، ولكنه في اللحظات البسيطة التي كان يشاهدها فيها كانت مشغولة بالعمل ولا توجد فرصة لتبادل الحديث.

ولم يكن هناك شيء مثل ذلك الوقت عندما كانت وحدها تميل فوق السور وتتطلع إلى البحر، وعدا ذلك فأنه كلما قرر الغلام أنه ضاق ذرعاً بهذا كله وأنه سيحذف "هاتسو" من مخيلته نهائياً في ذلك اليوم كان على يقين من أنه سيشاهدها بين جمهور يحتشد على الشاطئ عندما تقبل الزوارق.

والمعروف أن شباب المدينة يتعلمون فنون الحب من القصص والخيالة وغيرها، أما في أوتاجيما فلم تكن هناك نماذج يحذو المرء حذوها، وهكذا

فأنه بغض النظر عن دهشة شنجي لم تكن لديه فكرة عما كان ينبغي عليه أن يقوم به إبان تلك اللحظات الثمينة بين برج المراقبة والمنار، عندما كان معها وحدهما، ولم يترك له اللقاء سوى إحساس بالأسف، وشعور بأن هناك شيئاً عجز عن أن يقوم به.

وكان موعد الاحتفال الشهري بيوم وفاة أبيه، وكانت الأسرة كلها ستزور قبره، حسبما يفعلون كل شهر، واختارت الأسرة موعداً قبيل انطلاق الزوارق وقبل موعد مدرسة الأخ الأصغر لشنجي لكيلا يتعارض هذا مع عمل شنجي.

وخرج شنجي مع أخيه وأمه من المنزل، وكانت الأم تحمل معها أعراف الطيب وزهور القبور، وتركوا المنزل مفتوحاً لأنه لا يوجد شيء اسمه السرقة في القرية.

وكانت المقبرة على مقربة من القرية فوق منحدر منخفض فوق الشاطئ. وفي أثناء اشتداد المد كان البحر يصل إلى أسفل المنحدر، وكان المنحدر غير السوي مغطى بحجارة القبور، وبعضها يميل على أساس رملي ناعم.

ولم يكن الفجر قد بزغ ولكن الضوء كان يشع في السماء، جهة المنار، أما القرية والميناء وهما جهة الميناء فما زالا في ظلام.

وتقدم شنجي ركب أسرته يحمل مصباحاً من الورق، وأما أخواه هيروشي

فكان لا يزال يفرك عينيه ليبعد عنهما شبح النوم، عندما أمسك بيد أمه، وقال:

– هل أستطيع أن أتناول في الغداء اليوم أربع فطائر من الأرز، هل أستطيع؟

– ما هذه الحماقة؟ ستحصل على اثنين، أن ثلاث فطائر ستسبب لك المتاعب في معدتك.

– أرجوك أريد أربع فطائر!

والمعروف أن فطائر الأرز تصنع في الحجرة للاحتفال بيوم القرد أو في إحياء ذكرى الموتى، وهي فطائر كبيرة جداً.

وكان نسيم الصباح البارد يهب في المقبرة، وكان سطح البحر أمام الجزيرة داكن اللون، أما عرض البحر فكان يضيء بنور الفجر، وفي استطاعة المرء أن يرى الجبال المحيطة بخليج أيزي وبدت القبور في ضوء بزوغ الفجر أشبه بأشرعة الزوارق التي ترسو في ميناء مزدحم وهي أشرعة لن تسحبها الريح مرة أخرى، أشرعة لم تستخدم منذ عهد بعيد، وقد تحولت إلى حجارة، وكانت مراسي الزوارق قد نزلت إلى أعماق الأرض بحيث لن تنهض مرة أخرى.

وعندما وصلوا إلى قبر الأب نشرت الأم الزهور، وبعد أن أشعلت أعواداً من الثقاب هبت الريح فأطفأتها. لكنها في النهاية نجحت في إضاءة أعواد البخور، ثم جعلت أولادها ينحنون أمام القبر، بينما انحنت خلفهم وراحت تبكي.

وكان في القرية مثل شائع: لا تحمل في زورقك امرأة ولا قسيساً إلا أن الزورق الذي مات فيه شنجي الأب خرج من هذا القيد، فقد ماتت امرأة عجوز في الجزيرة قبيل نهاية الحرب، وانطلق زورق الجمعية التعاونية لينقل جسدها إلى توشي جيما لتشريح الجثة.

وعندما كان الزورق على بعد ثلاثة أميال من القرية شاهدته طائرة من إحدى حاملات الطائرات، وكان مهندس الزورق غير موجود، وكان بديله غير عليم بمحرك الزورق، وكان دخان ذلك المحرك هو الذي جعل الطائرة تراه.

فألقت الطائرة قنبلة على الزورق، ثم أطلقت عليه نيران رشاشاتها وتفتت الزورق، وقتل شنجي الأب، وقتل معه شخص آخر إذ أصيب في عينيه، وأصيب آخر برصاصة اخترقت ظهره، ووصلت إلى الرئة وآخر أصيب في ساقيه كما مات آخر من النزيف إثر رصاصة أصابت أردافه.

وأصبح الزورق بركة من الدماء، وأصيب خزان الوقود، ووصل الكيروسين إلى سطح الزورق حيث اختلط بالدم، وتردد البعض في أن ينبطحوا على الأرض في هذه المحنة فأصيبوا في جوانبهم، وأنقذ أربعة رجال

أنفسهم إذ احتموا في صندوق الثلج في القمرة الأمامية، واندس شخص من شدة الرعب في الكوة التي في جانب السفينة، ولكنه عندما حاول الخروج منها في الميناء لم يستطع.

وهكذا قتل ثلاثة أشخاص، وجرح آخرون من بين أحد عشر شخصاً ولكن جثة العجوز الممددة فوق ظهر الزورق تحت حصيرة مهلهلة لم تصب بأي مقذوف.

وقال شنجي يذكر أمه:

– لقد كان العجوز عنيفاً عندما كان يبحث عن "أم الخلول"، لقد كان يهزمني كل يوم، ولم يحدث أن كان وعاء الصيد يهبط حتى يرفعه وفيه مزيد.

والمعروف أن "أم الخلول" توجد في المياه العميقة في يوهيرو، وصيدها يتطلب براعة غير عادية.

وقالت الأم:

– حسن .. أن صيد هذا النوع من حيوانات البحر آية براعة أي إنسان حتى الصياد.

ولم يهتم هيروشي بهذا الحديث الذي كان يجري بين أمه وأخيه وإنما كان يحلم في رحلات المدرسة التي ستأتي بعد عشرة أيام فقط، وكان شنجي

فقيراً بحيث لا يستطيع أن يذهب في رحلات المدرسة عندما كان في سن "هيروشي" لهذا كان يوفر النقود من أجرته لنفقات سفر هيروشي.

وبعد أن فرغوا من الدعاء قرب القبر، ذهب شنجي وحده إلى الشاطئ لكي يساهم في الاستعداد للإقلاع، واتفق على أن تعود أمه إلى المنزل، وتحضر له غداءه، وقبل أن تقلع الزوارق.

وبينما هو مسرع متجهاً إلى الزورق على طول الشاطئ المزدحم اسمع صوتاً حملته إليه الريح، فوقع على أذنيه وقعاً ثقيلاً: أنهم يقولون أن ياسو تواموتو سيتزوج هاتسو.

وانهارت معنويات شنجي عندما سمع هذه الكلمات. واستمرت الزوارق في صيد الإخطبوط طوال ذلك اليوم.

وفي خلال الإحدى عشرة ساعة التي أمضوها في الزورق انكب شنجي على الصيد ولم ينبس ببنت شفة إلا نادراً. ولكن كان لا يتحدث إلا قليلاً في العادة فلم يكن صمته أمراً يثير الملاحظة.

وعادوا إلى الميناء، وربطوا الزورق بزورق الجمعية التعاونية وافرغوا صيدهم وبيع السمك عن طريق وسيط ونقل إلى سفينة المشتري وكانت لتاجر سمك يتجر بالجملة.

وكان ذلك هو اليوم الذي يحصل فيه الصيادون على أجورهم كل عشرة أيام، لهذا ذهب شنجي. وريوجي مع رئيسهما إلى مكتب الشركة

التعاونية، وكان ما اصطادوه خلال عشرة أيام ٣٣٠ رطلاً، ولهم مبلغ ٢٧,٩٩٧ يناً صافياً بعد خصم رسوم البيع للجمعية، ١٠ ٪ توفير ونفقات الصيانة، وحصل شنجي على أربعة آلاف ين، وكان مبلغاً لا بأس به إذا وضعنا في الاعتبار أن أوج موسم الصيد قد ولى.

وراح الفتى يلعق أصابعه، ويحصي نقوده، ثم أعادها إلى مظروف كتب عليه اسمه ووضعها في أسفل جيبه الداخلي، وانحنى لرئيسه ثم غادر المكتب، وجلس رئيسه قرب الموقد مع رئيس الجمعية وأمسك بصندوق تبغ صنعه بنفسه من قطعة مرجان.

وكان الفتى يعتزم الذهاب إلى المنزل مباشرة، ولكن قدميه ساقتاه من تلقاء نفسها إلى الشاطئ المظلم.

وكان آخر زورق يسحب إلى الرمال، ولم يكن هناك سوى عدد من الناس لجر الونش وسحب الجمال، لهذا كانت النسوة يدفعن الزورق من الخلف، وكان من الواضح أن الزورق لم يشق طريقه، وكان الظلام يخيم على الشاطئ ولم يكن هناك أثر لصبية المدارس الذين يمدون يد المساعدة عادة، ولهذا قرر شنجي أن يمد يده.

وفي تلك اللحظة رفعت إحدى النساء اللاتي يدفعن الزورق بصرها، ونظرت نحو شنجي، وكانت هاتسو، ولم يكن يرغب في أن يرى وجه الفتاة التي جعلته في حالة نكد طوال النهار، ولكن قدميه ساقتاه الي الزورق، وكان وجهها يبرق في الظلام، ورأى جبهتها مبللة بالعرق، ووجنتيها

محمرتين، وعينيها اللامعتين السوداوين تنظران إلى الجهة التي يدفع إليها الزورق.

وبدون أي كلمة أمسك "شنجي" بالحبل، فصاح الرجال في الونش يشكرونه، وكانت يدا شنجي قويتين، وفي لحظة انطلق الزورق إلى الرمل، وأسرعت النسوة خلفه بسلالهن.

وبعد أن وصل الزورق إلى الرمال استدار شنجي شطر منزله، وكان يريد أن يلتفت لكنه قاوم هذه الرغبة.

وفتح باب منزله، وشاهد على ضوء المصباح، الحصر القش المعروفة وقد بليت من الاستعمال والقدم، وكان أخوه يرقد على بطنه يقرأ، ممسكاً بكتاب تحت ضوء المصباح، وأمه منهمكة في الطهو على الموقد وبدون أن يخلع نعليه تمدد شنجي على ظهره، ونصف جسده الأعلى على الحصيرة وقدماه في مدخل المنزل.

وقالت الأم:

– مرحباً بعودتك.

وكان شنجي معتاداً أن يعطي المظروف الذي فيه أجره إلى أمه دون أن يقول شيئاً، والأم بصفتها أماً كانت تعلم وتتظاهر أنها نسيت أن هذا هو اليوم العاشر موعد قبض الأجور، وكانت تعلم مدى حب ابنها أن

يراها مندهشة ومد شنجي يده إلى جيبه الداخلي ليخرج المظروف فلم يجده، فبحث في جيبه الآخر، وفي جميع جيوبه فلم يجده.

وكان يقيناً أنه سقط منه على الشاطئ وبدون أن ينبس بكلمة انطلق من البيت.

وبعد ذهابه أقبل شخص يقرع الباب فذهبت الأم، ووجدت فتاة تقف في الظلام وقالت:

- هل شنجي في المنزل؟

فقالت الأم:

- لقد جاء منذ لحظة وخرج مرة أخرى.

- لقد عثرت على هذا على الشاطئ ولما كان اسم شنجي عليه ...

- كم هو لطيف منك لابد أن شنجي ذهب يبحث عنه.

- هل أذهب لأخبره؟

- أن هذا لجميل منك، كم أنا ممتنة لك.

وكان الظلام يخيم على الشاطئ، وأنوار توشي جيما وسوجاشي جيما تبرق عبر البحر، وكانت زوارق الصيد متراصة في مواجهة البحر.

ورأت هاتسو خيال "شنجي" ولكنه في تلك اللحظة اختفى وراء زورق وكان يبحث فوق الرمال، ويبدو أنه لم ير هاتسو، وجاءت الفتاة إلى أمامه وهو يقف غاضباً قرب زورق.

وأخبرته "هاتسو" بما حدث، وأنها جاءت لتقول له بأن النقود مع أمه في أمان، وراحت تقول له أنها سألت شخصين أو ثلاثة عن منزل شنجي وأشبعت فضولهم عندما أظهرت لهم المظروف، وعليه اسمه.

وتنهد الغلام بارتياح وابتسم، ولمع بياض أسنانه في الظلام، وكان صدر الفتاة يعلو ويهبط لأنها جاءت بسرعة، وذكره هنا بالأمواج الزرقاء الداكنة في البحر، وذهب شقاء ذلك اليوم وعادت إليه السكينة والاطمئنان.

وقال لها والكلمات تتدفق من فمه:

سمعت انك ستتزوجين ياسو تواموتو فهل هذا صحيح؟

فضحكت الفتاة وازداد ضحكها حتى وصل إلى القهقهة.

وأراد شنجي أن يوقفها عن الضحك لكنه لم يعرف كيف، فوضع يده على كتفيها، وكانت لمسته خفيفة إلا أن الفتاة وقعت على الرمال وهي تضحك.

فقال شنجي:

ما المسألة؟ ما المسألة؟

وجلس إلى جوارها وهزها من كتفيها وهدأ ضحك الفتاة ونظرت إليه نظرة جدية ثم ضحكت مرة أخرى.

وقرب شنجي وجهه من وجهها وسألها:

هل هذا صحيح؟

– يا للسخف إنها أكذوبة كبرى.

– لكن هذا ما يقولونه!

– إنه كذب. وشبك كل منهما ركبتيه، وجلسا في ظل زورق.

– أوه إنني متعبة، لقد ضحكت كثيراً حتى أصابني تعب هنا.

وأشارت إلى صدرها.. وكانت الملابس التي ترتديها تتحرك بسرعة فوق صدرها وقالت:

– وكان هنا موضع الألم.

فقال شنجي وقد وضع يده فوق مكان الألم بدون تفكير: هل أنت على ما يرام؟!

فقالت:

عندما نضغط أشعر بتحسن.

وفجأة راح صدر شنجي يعلو ويهبط بسرعة. واقتربت وجنتاهما من بعضهما حتى تلامستا، واستطاع كل منهما أن يشم رائحة الآخر، وكانت رائحة الماء المالح، واستطاعا أن يشعرا بدفء أحدهما الآخر، وتلامست شفتاهما المتعطشة، وكان طعم القبلة ملحاً.

وقال شنجي لنفسه: إن هذا مثل عشب البحر.

ومرت اللحظة، وابتعد الغلام، ووقف مدفوعاً بشعور بالذنب في أول تجربة له في حياته.

وقال: في الغد سأحمل سمكاً إلى منزل حارس الفنار، بعد عودتي من الصيد، وأخذ ينظر إلى البحر، وقد استعاد كرامته. وقال ذلك بصوت رجل شهم. فأجابت الفتاة وهي تنظر إلى البحر أيضاً: وأنا ذاهبة إلى هناك ظهر الغد.

وافترق الاثنان وسارا على جانبين متقابلين من الزوارق، واتجه شنجي إلى المنزل لكنه لاحظ أن الفتاة لم تخرج من وراء الزورق. وعندئذ شاهد خيالها على الرمال وراء آخر زورق فعلم أنها تختبئ هناك.

فقال:

– إن خيالك كشفك.

وفجأة خرجت الفتاة تجري، مثل الحيوان البري، وذهبت عبر الشاطئ دون أن تنظر وراءها.

الفصل السادس

وبعد أن عاد شنجي من الصيد في اليوم التالي توجه إلى الفنار، ومعه سمكتان طول كل منهما ٥ إلى ٦ بوصات.. وبعد تسلق مؤخرة معبد ياشيرو تذكر أنه لم يشكر الإله لأنه أنعم عليه ببركته بسرعة، فذهب إلى أمام المعبد وصلى بحماسة.

وعندما أنهى شنجي صلاته نظر نحو خليج أيزي الذي يتلألأ في ضوء القمر، وتنفس بعمق، وكانت السحب تتلبد في الأفق أشبه ما تكون بقدماء الآلهة.

وشعر الفتى بوفاق تام بينه وبين غنى الطبيعة التي تحيط به فتنفس الصعداء وبدا كما لو أن شيئاً خفياً مما يشكل الطبيعة قد دخل إلى أعماق نفسه، وسمع صوت الموج يرتطم بالشاطئ، وبدا كما لو أن سريان دمه يحصي الزمن بحركة مد البحر، وهذا لا شك فيه لأن الطبيعة نفسها أشبعت حاجته، فلم يشعر بنقص الموسيقى في حياته اليومية.

ورفع شنجي السمكتين إلى أعلى وذاق طعمهما بلسانه، وكانت السمكتان على قيد الحياة إلا أنهما لم تتحركا.

وهكذا كان الغلام يتسكع في الطريق متشوقاً إلى أن يتم اللقاء السعيد بسرعة.

ولكن حارس الفنار وزوجته أحبا هاتسو حباً كبيراً ، وعندما تكون الفتاة صامتة يظنان أنها ليست جذابة، وفجأة تنفجر ضاحكة، وإذا كانت في شبه ذهول فإنها تكون شديدة الرزانة، إذ على سبيل المثال، ففي نهاية درس الأتيكيت تبدأ "هاتسو" فوراً برفع فناجين الشاي التي استخدموها، وهو يدل على تفكير لا يحدث للفتيات الأخريات، وأثناء قيامها بهذا العمل فإنها تعمل على تنظيف الأواني الأخرى التي تجدها في المطبخ.

وكانت أسرة الفنار لها ابنة واحدة تدرس في الجامعة بطوكيو وهي تحضر إلى منزلها إبان الإجازات، وفي غيابها كان أبواها يعتبران فتيات القرية اللائي يترددن على منزلهما أبناء لهما، وكانا يهتمان كثيراً بمستقبل الفتيات، وإذا أصاب إحداهن حظ طيب فرحا كما لو كانت ابنتهما.

وكان أبناء القرية يخافون حارس الفنار الذي يؤدي هذا العمل منذ ثلاثين عاماً، وذلك بسبب نظرته الصارمة وصوته الهائل الذي يهتف به على الذين يحضرون لمشاهدة الفنار، ولكنه كان في قرارة نفسه طيباً، فقد جعلته الوحدة مجرداً من أي شعور يخلق عند الرجال دوافع دنيئة، ولا شيء يعادل وصول الزائرين إلى فنار.

ومن المؤكد أنه لا يوجد إنسان يزور مثل هذا المكان المنعزل، ولديه دوافع سيئة وأن أي شعور من هذا القبيل يختفي أمام الكرم الفياض الذي سيلقاه به، ولهذا يقول حارس الفنار: النوايا السيئة لا تبقى مثل النوايا الطيبة.

وكانت زوجته امرأة طيبة واسعة الإطلاع، فقد كانت مدرسة في مدرسة للفتيات في الريف كما أن وجودها في الفنارات هذه السنين الطويلة زاد من حبها في القراءة حتى أصبحت أشبه بالموسوعة.. فإذا كانت تعرف أن دار أوبرا لاسكالا في ميلانو فإنها تعرف أن هذا النجم السينمائي أو ذاك قد داس على كعبها الأيمن في مكان كذا، وتستطيع أن تفحم زوجها. ولكنها لإصلاح ذلك تقبل على رتق جواربه وإعداد طعامه، وعندما يقبل الزوار تنطلق في الكلام بلا توقف، وينصت لها سكان القرية وهم مأخوذون بفصاحتها، وبعضهم يقارنها بزوجاتهم ويشعرون بالعطف على حارس الفنار، غير أن الحارس كان يكن لعلمها احتراماً كبيراً.

وكان مقر إقامة حارس الفنار عبارة عن منزل من دور واحد يضم ثلاث حجرات، وكل شيء في المنزل مرتب ونظيف مثل الفنار نفسه، وهناك تقويم لإحدى شركات السفن معلق على الجدار، وحتى الأشياء الخاصة بابنتهما الغائبة كانت نظيفة ومرتبة.

وكان هناك خلف المنزل حمام تسخن فيه المياه بواسطة غاز من رواسب الزيت الذي يستخدم لتزييت المصباح، وعلى خلاف ما هو في منازل الصيادين كان في الفنار فوطة نظيفة معلقة بجوار التواليت النظيف.

وكان حارس الفنار يقضي سحابة يومه بجوار المدفأة، يدخن لفائفه الرخيصة، والفنار في النهار لا عمل له. وفيه واحد من المساعدين الشبان يسجل حركة السفن.

وفي مساء ذلك اليوم على الرغم من أنه لا يوجد درس في الأتيكيت أقبلت هاتسو زائرة ومعها هدية.. وكانت ترتدي أسفل الجونلة الزرقاء جوارب قصيرة حمراء، وكان الصديري هو الذي تلبسه دائماً وهو قرمزي اللون.. وحالما دخلت هاتسو إلى المنزل بدأت السيدة تعطيها النصائح:

عندما ترتدين جونلة زرقاء يا هاتسو يجب أن ترتدي جورباً طويلاً أسود اللون وأنا أعلم أن لديك مثل هذه الجوارب لأنني رأيتك ترتدينها ذاك اليوم:

– حسناً.

قالت هاتسو وقد أحمر وجهها قليلاً. وجلست قرب الموقد وفي أثناء دروس الأتيكيت وترتيب شئون المنزل العادية. كانت الفتيات يجلسن منصتات والسيدة تتكلم بصوت المحاضرة، ولكنها الآن جلست مع هاتسو قرب المدفأة وراحت تتكلم بحرية وسهولة، ونظراً لأن الزائرة شابة فقد راحت السيدة تتكلم بصورة عامة عن الحب ثم راحت تسأل أسئلة مباشرة :

– أليس هناك شخص تميلين إليه؟

وعندما يرى حارس الفنار أن الفتاة تلعثمت فإنه يسألها سؤالاً طريفاً .

وعندما تأخر الوقت سألا هاتسو عما إذا كانت لا تريد العودة إلى منزلها لتناول العشاء، وما إذا كان أبوها ينتظرها، ولكن هاتسو اقترحت بعد ذلك أن تقوم بإعداد عشائها.

ومن ذلك الحين كانت هاتسو تجلس هنا خجلة وتنظر إلى أرض الغرفة ولا تلمس المنعشات التي قدمت لها، ولكنها عندما دخلت المطبخ استعادت نفسها وعندما راحت تقطع الخيار البحري الذي أحضرته معها راحت تغني أنشودة معروفة في القرية يغنيها الناس بمصاحبة رقصة عيد المصباح وقد تعلمتها من عمتها في اليوم السابق:

الصدور المرتفعة، الصدور الطويلة. الصدور المسافرة.

نظراً لأن بائنتك كبيرة يا ابنتي

فيجب ألا تفكري في العودة أبداً

ولكن آه يا أمي تطلبين الكثير

عندما تخيم السحب على الشرق يقولون أن الريح ستهب

وعندما تخيم السحب على الغرب يقولون أن الأمطار ستهطل

وعندما تقوم ريح لطيفة

أوه سورا

ستعود أكبر السفن إلى الميناء.

وقالت السيدة:

– ياه لقد تعلمت تلك الأغنية يا هاتسو، لقد مضت ثلاث سنوات على حضوري إلى هنا ولم أتعلمها كلها بعد.

فقالت هاتسو:

– إنها نفس الأغنية التي غنيناها في أوزاكي.

وفي تلك اللحظة سمع صوت خطوات خارج المنزل وارتفع صوت يقول:

– عمتم مساء.

فقالت السيدة:

– لا بد أنه شنجي.

وأخرجت رأسها من باب المطبخ وقالت:

– حسناً حسناً. إنه سمك ممتاز. شكراً يا أبتاه إن ابن كوبوسان قد أحضر لنا سمكاً.

– فقال حارس الفنار من مجلسه:

– شكراً لك، ادخل يا شنجي ادخل.

وإبان هذا الترحيب والشكر تبادل شنجي وهاتسو النظرات، وابتسم شنجي وكذلك الفتاة، إلا أن السيدة استدارت وقطعت الابتسامة وقالت :

– هل تعرفان بعضكما؟ إن القرية مكان صغير، وهذا حسن ادخل يا شنجي! دار بخلدي أن لدينا رسالة من تشيوكو في طوكيو، وقد سألت عن شنجي بصورة خاصة، لا أعتقد أن هناك شخصاً حول الشخص الذي تحبه تشيوكو. أليس كذلك؟ إنها ستحضر عن قريب لقضاء إجازة الربيع فتعال لرؤيتها.

وكان شنجي على وشك الدخول عندما سمع هذه الكلمات، وعادت هاتسو إلى حوض الغسيل ولم تنظر حولها مرة أخرى، ورجع الغلام إلى خارج المنزل ونادوه عدة مرات غير أنه لم يعد، وانحنى لهم من بعيد وانطلق لا يلوى على شيء!

وقالت السيدة ضاحكة:

– إن شنجي هو الشخص الخجول! أليس كذلك؟

وتردد صوت ضحكها في جنبات المنزل إلا أن زوجها وهاتسو لم يبتسما وانتظر شنجي هاتسو حيث الممر ينحني قرب "منحدر السيدة" S " Woman".

وفي تلك اللحظة كان الشفق الذي يخيم على الفنار يفسح المجال أمام الضوء الخافت الذي ترسله الشمس قبل الغروب، ومع هذا أصبحت ظلال شجر الصنوبر سوداء وكان البحر في أسفل يبرق بذلك الضوء. وطوال اليوم كانت الريح الشرقية التي تأتي في الربيع تهب عبر البحر، وحتى والليل قد أوشك أن يأتي فإن الريح لم تكن رطبة!

وعندما استدار شنجي حول منحدر السيدة تلاشى ذلك الريح، ولم يبق في الفسق سوى أعمدة من شعاع تخترق السحب.

ونظر شنجي إلى أسفل فرأى الجبل الذي يدخل البحر ليشكل الجانب البعيد من ميناء أوتاجيما. ومن حين إلى آخر كان طرف الرأس كتفيه الصخريتين وببعد الأمواج البيضاء. وفوق الرأس كانت هناك شجرة صنوبر حمراء، وجذعها يتلألأ، وصورتها واضحة أمام الفتى، ثم تلاشى آخر شعاع من الضوء، واسودت السحب، وبدأت النجوم تتلألأ فوق جبل هيجاشي •

ووضع شنجي أذنيه فوق صخرة، وسمع صوت خطوات سريعة قصيرة تقترب عبر الممر الذي يؤدي إلى أسفل من السلالم الحجرية عند مدخل مقر الفنار، وكان يعتزم أن يختبئ ويخيف هاتسو عندما

تقبل ولكنه أحجم عن ذلك، وبدلاً من ذلك، أظهر لها نفسه كيما تعرف مكانه، وذلك بأن راح يصفر بضعة أبيات من الأغنية التي كانت تشدو بها:

عندما تخيم السحب على الشرق يقولون أن الريح ستهب وعندما تخيم السحب على الغرب يقولون أن المطر سيهطل وحتى أكبر سفينة.

ودارت هاتسو حول منحدر السيدة إلا أنها لم تتوقف، بل سارت كما لو أنها لا تعلم أن شنجي موجود هناك.

فقال :

– هاتسو! هاتسو.

ولكنها لم تنظر إلى خلفها، ولم يكن أمامه سوى أن يسير وراءها صامتاً، ودخلا غابة الصنوبر، وأصبح الممر مظلماً ومنحدراً، وكانت الفتاة تضيء طريقها بنور كشاف وأبطأت السير قبل أن تدرك ذلك، ولحق بها شنجي.

وفجأة صرخت الفتاة، وحلقت شعاعة النور الكشاف مثل الطائر المذعور من أسفل أشجار الصنوبر إلى أعلاه.

واستدار الغلام ووضع ذراعيه حول الفتاة التي رقدت على الأرض، وأنهضها وبينما يساعدها تذكر والخجل يكسو وجهه كيف انتظرها منذ برهة، وصفر لها ثم تبعها، وحتى أن كانت الظروف هي التي جعلته يفعل ذلك إلا أنه شعر أن أعماله شريرة ، ولم يفعل ما فعله أمس، بل راح ينظف ما علق بملابس الفتاة برقة كما لو أنه أخوها الأكبر. ولم يكن هناك أي أثر لإصابات.

ووقف هاتسو بلا حراك كالطفل، وقد وضعت يدها على كتف شنجي وهو ينظف ملابسها، ثم راحت تتطلع باحثة عن الدور الكشاف الذي وقع من يدها، وكان الضوء الكشاف على الأرض الخافتة.

وقالت:

– انظر أين المصباح، لا بد أنني ألقيته خلفي عندما وقعت.

وراحت تضحك فقال شنجي وهو يتفرس في وجهها:

– ما الذي جعلك تفقدين صوابك؟

– أنه الكلام عنك وعن تشيوكوسان.

– يا للغباء !

– أليس في ذلك شيء ؟

– كلا!

وسارا جنباً إلى جنب، وشنجي يمسك المصباح، ويقود هاتسو عبر الممر كما لو كان يرشد سفينته، ولم يكن هناك ما يقال ولكن شنجي راح يتكلم لكي يبدد الصمت:

– أما أنا فأريد ذات يوم أن أشترى سفينة شحن بالنقود التي أعمل بها وأوفرها ثم أذهب للصيد مع أخي. وننقل الأمتعة من كيشو، والفحم من كيوشو، ثم أخفف العبء عن والدتي، وعندما يتقدم بي السن سأعود إلى الجزيرة، وأعيش حياة بسيطة، ولا يهم أين أبحر، ولكني لن أنسى الجزيرة، أن فيها أجمل المناظر في اليابان، وجميع سكانها يؤمنون بذلك، وبنفس الصورة سأبذل ما بوسعي لكي أجعل الحياة في جزيرتنا اكثر سلاماً مما هي في أي مكان، وأسعد حياة، لأننا إذا لم نفعل ذلك سيبدأ الجميع في نسيانها ويرحلون عنها، ولا يريدون العودة إليها.

وبغض النظر عن تغير الزمن فهناك أشياء سيئة للغاية، ستختفي دائماً قبل أن تصل إلينا، والبحر يحمل الأشياء الملائمة والمناسبة التي تحتاجها الجزيرة ومن أجل هذا لا يوجد لص في الجزيرة كلها، وليس فيها سوى أناس شجعان كلهم شهامة، ولديهم الإرادة في العمل الجيد، ومواجهة كل ما يحدث به أناس حبهم صادق، وليس هناك من شيء حقير في نفوسهم.

وفي الحق أن الغلام لم يكن على مثل هذه الفصاحة، وكانت طريقة كلامه مبتورة ومرتبكة ولكن هذا ما قاله لهاتسو آنذاك.

ولم تقطع عليه هاتسو حبل الكلام، بل راحت تهز رأسها موافقة على كل ما قال، ولم يبد عليها الضيق أبداً، بل كان وجهها يكسوه عطف حقيقي وثقة مما أثار السرور في نفس شنجي.

ولم يكن شنجي يريدها أن تعتقد أنه مستهتر، وفي نهاية كلامه الجاد حذف ذلك الأمر الهام الذي ضمنه صلاته أمام إله البحر منذ ليال.

ولم يكن هناك أي عائق، والممر لا يزال يخفيهما إلا أن شنجي في هذه المرة لم يمسك يدها أو يفكر في تقبيلها مرة أخرى، وما حدث أمس على الشاطئ المظلم بدا لهما أنه ليس من صنعهما إذ كان حدثا لم يحلما به، جاء نتيجة قوة خارجة عن إرادتهما، لقد كان أمراً غامضاً أن يحدث ذلك.

وفي هذه المرة رتبا موعداً للقاء آخر عند برج المراقبة ظهر المرة التالية التي لن تخرج فيها زوارق الصيد.

وعندما خرجا من وراء معبد ياشيرو أعربت هاتسو عن إعجابها ثم توقفت عن السير فوقف شنجي أيضاً.

وكانت القرية شعلة من نور، وبدت كما لو أنها بداية حفل كبير، فجميع النوافذ مضاءة بأنوار ليست تلك الخاصة بالمصابيح الزيتية، وبدا كما لو أن القرية عادت إلى الحياة، وخرجت من ظلام دامس، فقد تم إصلاح مولد الكهرباء.

وقبيل دخول القرية سلك كل منهما طريقاً، وسارت هاتسو على طول السلالم الحجرية إلى القرية التي انتشرت المصابيح في شوارعها مرة أخرى.

الفصل السابع

وحان موعد رحلة هيروشي شقيق شنجي التي تقوم بها المدرسة، وكانت الرحلة عبارة عن جولة في منطقة كيوتو أوزاكا لمدة ستة أيام أي تمضية خمسة أيام خارج المنزل، وكانت هذه هي الطريقة التي يرى فيها شبان أوتاجيما، الذين لم يغادروا الجزيرة من قبل العالم الخارجي بأعينهم، ويتعرفون عليه، وبنفس الطريقة يذهب التلاميذ الذين هم أصغر سناً إلى أرض اليابان ويتجولون ويحدقون في الأوتوبيس الذي تجره الجياد، ويهتفون: انظروا! كلب كبير يجر عربة!

وكان أطفال الجزيرة يتعرفون على العالم الخارجي عن طريق صور وكلمات في كتب المدرسة، لذا كم كان صعباً عليهم أن يتصوروا بقوة الخيال أشياء مثل العربات والمباني الفخمة والسينما.

ولكن بعد أن يشاهدوا الواقع وبعد أن تزول الدهشة يفكرن كم كان من الصعب أن يتخيلوا مثل هذه الأشياء إلى حد أنهم في نهاية حياتهم على الجزيرة لا يتذكرون وجود أشياء مثل السيارات التي تجوب شوارع المدينة.

وقبل كل رحلة مدرسية يقوم معبد ياشيرو بعمل مربح في التعاويذ ففي حياتهن اليومية تعرض النسوة أنفسهن للخطر والموت في البحر ولكن

عندما تحين الرحلات وزيارة المدن الكبيرة التي لم يشاهدانها تشعر الأمهات أن أبناءهن سيقومون بمغامرات كبيرة يتحدون فيها الموت.

واشترت والدة هيروشي بيضتين ثمينتين وصنعت غذاء لابنها ووضعت في جرابه بعض الحلوى والفاكهة.

وفي ذلك اليوم غادرت الجزيرة المعدية الوحيدة فيها كاميكازي مارو في ساعة عادية بعد الظهر، وفي الماضي كان قبطان هذه السفينة التي تحمل أقل من عشرين طناً يرفض السفر في المواعيد المحددة. ولكن جاءت السنة التي سافر فيها ابنه في رحلة، ثم أدرك منذ ذلك الحين، معنى ما يقال بأن الأطفال سيبددون أموالهم إذا وصل الزورق إلى "طوبا" قبل موعد سفر القطار بكثير، فوافق على الوقت الذي تحدده سلطات المدرسة بالنسبة للسفر.

وكانت "المعدية" تعج بأولاد المدارس وهم يحملون لوازمهم، وقد ذعر المدرسون المشرفون على الرحلة من ازدحام الأمهات عند السفينة، وفي الجزيرة يتوقف مركز المدرس على ميل الأمهات. فقد قامت الأمهات بوصف أحد المدرسين بأنه شيوعي فطردوه من الجزيرة، في حين أن مدرساً آخر له شعبية بين الأمهات اعتدى على مدرسة زميلة له فحملت منه، ومع ذلك ظل ينال الترقيات حتى وصل إلى نائب ناظر!

وعندما أقلعت المعدية كانت الأمهات يهتفن بأسماء أبنائهن، وكان السفر بعد الظهر في يوم أشبه بأيام الربيع، وظل الطلبة في أماكنهم حتى ابتعدوا عن الجزيرة، ثم بدءوا يصرخون ضاحكين:

– وداعا أيها الأغبياء! أيتها العجائز، اذهبوا إلى الجحيم!

وبعد أن عادت أم هيروشي إلى المنزل جلست على الحصر القش، وبدأت تبكي وتفكر في اليوم الذي سيغادرها فيه والدها نهائيا ويذهبان إلى البحر.

وأنزلت السفينة حمولتها من الطلبة في مرفآ "طوبا" المقابل في جزيرة "بيرل" واستعادت حالتها السابقة فبدأت تستعد للعودة إلى أوتاجيما.

وكانت تشيوكو ابنة حارس الفنار تقف في نهاية الرصيف وتحمل حقيبة من بوسطن، وكانت هذه الفتاة الغير اجتماعية والتي تعود إلى الجزيرة بعد غياب تشمئز من تحية سكان الجزيرة لها ومحادثتهم إياها.

ولم تكن تشيوكو متصنعة أبداً، وكان من الصعب تمييزها نتيجة الرداء البسيط الذي ترتديه، وكان هناك شيء في الطريقة المرحة التي تظهر من ملامحها وتجعلها محببة عند البعض، إلا أنها كانت مكتئبة دائماً وتعتقد أنها غير جذابة، وقد كان هذا نتيجة ما تعلمته في الجامعة بطوكيو، ولكن ربما أن الطريقة التي كانت تجعلها تعتقد أنها غير جميلة كانت منفرة وتشير إلى أنها معتقدة تماماً بأنها جميلة.

ولقد ساهم أبوها الطيب على غير علم بهذا الاعتقاد الذي لدي الفتاة إذ كانت تشكو دائماً أنها ورثت بشاعتها منه، وحتى عندما تكون ابنته في الغرفة المجاورة فقد كان يقول لضيوفه: حسناً:

لاشك أن ابنتي ساذجة وهذا يحزنني، أنني غير جميل، وأعتقد أنتي اللوم في ذلك، ولكنني أعتقد أن هذا هو القدر.

وربت بعضهم على كتف الفتاة فاستدارت، وكان هو ياسوموتو رئيس رابطة شبان الجزيرة ووقف يضحك:

– مرحبا بعودتك، أنها أجازة الربيع! أليس كذلك؟

– نعم! لقد انتهى الامتحان أمس.

– وهكذا عدنا لكي نشرب بعض اللبن من عند والدتك.

وفي اليوم السابق بعث ياسو الأب ابنه للقيام بعمل الجمعية "التعاونية" لدى سلطات المدينة في "تسو" وقضى الليل في أحد فنادق "طوبا" وهو عائد الآن إلى أوتاجيما، وكان يفخر في أن يبين لهذه الفتاة من إحدى جامعات طوكيو كيف يحسن الكلام بدون أي أثر للهجة الجزيرة.

وكانت تشيوكو تدرك مرح هذا الشاب، الذي يقاربها في السن ويبدو كما لو أن لسان حاله يقول: لا شك أن هذه الفتاة تنظر إلى نظرة خيالية، وكان هذا الشعور يزيد من حدة مزاجها.

وقالت لنفسها:

– لقد عدنا من جديد.

وكانت تخضع لميلها الطبيعي، وللأفلام التي شاهدتها والقصص التي قرأتها في طوكيو، وتتمنى دائماً أن تجد إنسانا ينظر إليها ويقول:

أحبك .. بدلاً من هل تحبينني؟

ولكنها قررت ألا تتعرض لمثل هذه التجربة طيلة حياتها.

وارتفع صوت من المعدية:

– آه! أين شحنة القطن! فليبحث عنها أحد.

وجاء شخص يحمل بالة قطن على كتفيه وقال ياسو:

– أن الزورق سيرحل.

وعندما قفزا من الرصيف، أمسك ياسو بيد تشيوكو وساعدها على الركوب، وشعرت الفتاة بمدى اختلاف يده الحديدية عن أيدي الرجال في طوكيو، ولكن في خيالها كانت تشعر بيد شنجي.

ونزل الاثنان من فوق ظهر المركب هرباً من الريح وجلسا قرب لفة من الحبال.

وأقبل مساعد القبطان وقال:

– أرفعوا أمتعتكم لحظة!

ثم رفع ستارة من تحتهم فقد جلسوا فوق كوة تستخدم لإغلاق كابينة المسافرين، ورن القبطان جرس السفينة فانطلقت تمخر عباب البحر.

وراح ياسو وتشيوكو ينظران إلى ميناء "طوبا" وأراد ياسو أن يشير كيف انسل وابتاع قطنه أمس لكنه فضل ألا يفعل فلو كان غلاماً من قرية زراعية أو قرية صيد عادية لكانت خبرته مع النساء مدعاة للتفاخر، أما في قرية أوتاجيما المحافظة فكان لابد له من أن يصمت، وقد تعلم رغم صغر سنه أن يقوم بدور المنافق.

وكانت تشيوكو تحدث نفسها عند اللحظة التي يرتفع فيها النوء في البحر إلى أكثر من برج التلغراف الذي يقع فوق جبل وراء محطة طوبا، وهذه الفتاة التي من الخجل لم تعرف المغامرات في طوكيو كانت تأمل أنها عندما تعود إلى الجزيرة فسيحدث لها شيء مدهش يغير عالمها كله.

وبعد أن ابتعد الزورق عن ميناء طوبا كان من السهل على الأمواج أن ترتفع أعلى من البرج المذكور، إلا أن البرج كان يحلق في الجو.

وقالت:

– إذا ارتفع موج البحر أكثر من ذلك خلال الثلاثين ثانية المقبلة فهذا يعني أن شيئاً مدهشاً حقاً ينتظرني.

ومرت خمس ثوان، وارتفعت موجة أكثر من البرج ..

وخشيت أن يلحظ الفتى ابتسامتها، فقطعت حبل صمتها وقالت:

– هل هناك أنباء جديدة في القرية؟

وكان الزورق يجتاز جزيرة سكاتي إلى الميناء، وأطفأ ياسو سيجارته وقال:

– لا يوجد شيء معين ولكن المولد الكهربائي تعطل لعشرة أيام مضت ولكنه عاد يعمل الآن.

– فعلاً لقد كتبت لي أمي عنه!

– أوه هل فعلت؟ حسناً! أما عن أنباء أخرى ..

وراح يتطلع إلى البحر ثم قال:

– نسيت أن العم تيرومياتا قد طلب من ابنته العودة واسمها "هاتسو" وهي جميلة فعلاً.

– حقاً؟

و علت وجه تشيوكو سحابة عند ذكر كلمة "جمال" لأنها تتسم بالنقد لطلعتها، وقال:

–أنتي المفضل عند العم تيرو، وهناك أخي الأكبر ليدير شئون المدرسة، لهذا يقول الجميع في القرية أنه سيقع على الاختيار لأكون زوجاً لهاتسو.

واقترب الزورق من جزيرة "سوجا" ومن جزيرة "توش" وكانت هناك صخور أسباخ أوكي.

وقطب ياسو جبينه وحول بصره عن أسباخ أوكي لأنها تذكره بالعار الوحيد الذي لحق بجزيرة أوتاجيما، فإن حقوق الصيد في هذه المنطقة حيث أريق دم شباب أوتاجيما في النزاع القديم قد أعيدت الآن إلى جزيرة "توشي".

ووقف الاثنان وتطلعا عبر غرفة القيادة، وراحا يترقبان ظهور جزيرة في الأفق.

وكالعادة ارتفعت أوتاجيما من سطح البحر في شكلها كخوذة غريبة شاذة، وانحرف الزورق، وانحرفت معه الخوذة.

الفصل الثامن

وبدا كما لو أن الحصول على يوم راحة من العميد لن يتم أبداً، وفي النهاية بعد يومين من سفر هيروشي في رحلته المدرسية تعرضت القرية لعاصفة شديدة لم تستطع معها الزوارق أن تنطلق للصيد، ولم ينج من الدمار شيء من زهور الكرز.

وفي اليوم السابق هبت ريح رطبة في غير موسمها على الأشرعة، وفي الغروب انتشر في السماء ضوء غريب، وانتفخت الأرض، وراحت الأمواج تهدر على الشاطئ، وخرجت حشرات البحر تلتمس النجاة فوق اليابسة، وفي إبان الليل هبت رياح عاصفة تخللتها الأمطار، وامتلأ البحر بأصوات أشبه بصرخات البشر.

وأنصت شنجي لصوت العاصفة من على فراشه، وكان الصوت يكفي ليخبره بأن الزوارق لن تقلع اليوم.

ولم يرد "شنجي" أن يوقظ أمه، التي كان تنفسها من الفراش المجاور يؤكد له أنها لا زالت نائمة، فظل ساكناً ينتظر ظهور الصباح من النافذة.

وكان المنزل يهتز بعنف والنوافذ تتأرجح، وسقطت صفيحة من الزنك فأحدثت دوياً كبيراً، وكانت جميع بيوت الجزيرة الغني منها والفقير مثل منزل شنجي مبنية بصورة متشابهة فالمدخل يؤدي إلى غرفة المعيشة

ذات الأرض المتسخة، وعلى جانبها إلى اليسار غرفة التواليت، والمطبخ على اليمين، ووسط ثورة الريح في الظلام الذي يسبق الفجر انتشرت رائحة في المنزل كله، وكانت رائحة غرفة التواليت.

وبدأ نور الصباح يتسلل عبر النافذة التي تواجه جدار مخزن منزل الجيران، ونظر شنجي إلى الأمطار الغزيرة التي تهطل، وكان من قبل يمقت الأيام التي لا صيد فيها، الأيام التي تحرمه من متعة العمل والأجر، ولكن الآن فإن احتمال قدوم مثل هذا اليوم كان أجمل الأيام بالنسبة إليه فقد كان عيداً مجيداً، ليست فيه السماء مشرقة، والأعلام مرتفعة، ولكن فيه عاصفة وبحار ساخطة، وريح تزأر.

ورأى أنه لا جدوى من الانتظار، فقفز شنجي من فراشه، وارتدى سروالاً، وصديرياً أسود اللون، وبعد لحظة استيقظت الأم لترى خيال رجل يقف قرب النافذة التي تسرب خلالها بصيص من ضوء الفجر فصاحت:

– من هناك ؟

فقال شنجي:

– أنه أنا.

– لا تخيفني هكذا؟! هل أنت ذاهب الصيد في يوم كهذا؟

– أن الزوارق لن تخرج للصيد ... ولكن .

–حسناً فلم لا تنام؟ لقد حسبتك شخصاً غريباً قرب النافذة ولم تخطىء الأم في أول فكرة طرأت لها عندما فتحت عينيها، فأن ولدها بدا غريباً في ذلك الصباح، فقد كان شنجي الذي لا يفتح فمه أبداً، واقفاً يغني بأعلى صوته، ويقوم ببعض التمرينات الرياضية.

ولم تعرف الأم سبب هذا السلوك الغريب من ابنها، وخشيت أن يهدم المنزل، فقالت:

–أن العاصفة تزأر في الخارج فماذا لدينا هنا في داخل المنزل؟

وكان شنجي يكثر من النظر إلى ساعة الحائط، بين الحين والحين، ولما كان قلبه لا يعرف الشك فأنه لم يتساءل لحظة عما إذا كانت الفتاة ستجازف أمام هذه العاصفة وتحافظ على موعدهما، ولم يكن يعرف تلك الوساوس، والوسيلة الفعالة في قضاء الوقت بالتهويل في مشاعره وتعقيدها سواء أكانت سعادة أم قلقاً عن طريق الخيال.

وعندما لم يستطع أن يتحمل الانتظار، ارتدي شنجي معطفاً مطاطاً واقياً من المطر وخرج ليواجه البحر، وبدا له أن البحر وحده هو الذي سيكون شفوقاً بحيث يجيب على حديثه الصامت.

وكانت الأمواج ترتفع عبر الحاجز، وتحدث زئيراً فظيعاً، ثم تذهب، ونظراً لأنه جاء تحذير بالعاصفة مساء أمس ثم سحب كل زورق إلى مسافة أبعد من المعتاد، فوق الشاطئ، وعندما كان الأمواج الضخمة تذهب كان

سطح الماء ينحرف كثيراً، وبدا كما لو أن قاع الماء في الميناء قد أصبح واضحاً للعيان.

وكان رذاذ الماء مع المطر يلفح وجه شنجي، وتنحدر ملوحة المياه على وجناته المحمرة حتى تصل إلى أنفه، فيتذكر شنجي طعم شفتي هاتسو.

ولما كانت السحب تتحرك بسرعة، وحتى في السماء المكفهرة فقد كان هناك تقلب بين البياض والسواد. ولمح شنجي وميض سحب فيها ضوء قاتم كما لو أنها تعد بأن السماء ستصبح صافية، ولكنها كانت تذهب بسرعة.

وكان شنجي يحدق في السماء إلى حد أن موجة هبت حيث وقف، وبللت أطراف حذائه. ووجد عند قدميه صورة جميلة، غسلتها نفس الموجة، فالتقطها وفحصها، فوجدها رائعة وقرر أنها تصلح هدية مناسبة فوضعها في جيبه.

وعقب الغداء مباشرة أخذ شنجي يستعد للخروج مرة أخرى، ورأته أمه يخرج في العاصفة للمرة الثانية، فتوقفت أثناء غسيلها للأطباق لكي تحدق وراءه ولكنها لم تجرؤ على سؤاله عن وجهته، فقد كان هناك شيء وراءه ينذرها بالتزام الصمت، وكم كانت تأسف لأنها لم تنجب ابنة واحدة تبقى معها في المنزل لكي تساعدها في عملها.

فالرجال يخرجون للصيد، ويركبون السفن، وينقلون الشحنات إلى جميع الموانى وأما النساء اللاتي لم يخلقن لذلك العالم الواسع، فأنهن يعكفن على طهي الأرز وجمع أعشاب البحر. وعندما يقبل الصيف يغصن في الماء إلى قاع البحر، وكان قاع البحر بالنسبة لها هو عالم النساء وكانت تعرف هذا كله، وتعرف ظلمة البيوت عند الظهيرة، وآلام الوضع.

وتذكرت الأم إحدى النساء في الصيف الذي قبل الماضي، وكانت أرملة مثلها، امرأة ضعيفة لازالت تحمل طفلاً تعني به، وكانت المرأة قد خرجت من الغطس، ثم سقطت مغشياً عليها فجأة وهي

تقف أمام النار، وعندما دفنت أشلاؤها عند الغسق في غابة الصنوبر حزنت النسوة اللائي يبحثن عما في قاع البحر، ورحن يبكين وينتحبن.

وانتشرت قصة عجيبة عن ذلك الحادث، وخافت بعض النسوة من الغوص بعد ذلك، وقيل أن المرأة الميتة قد توفيت لأنها شاهدت شيئاً مخيفاً في قاع البحر .. شيئاً لا يحق للبشر أن يروه.

وسخرت أم شنجي من هذه القصة، وراحت تغوص إلى أعماق أشد غوراً لكي تجلب أكبر حصيلة صيد في الموسم، ولم تكن امرأة تقلق من أشياء مجهولة.

وحتى مثل هذه الذكريات لم تكن لتترك أثراً على مرحها الطبيعي، فكانت تفخر بصحتها الجيدة، وكانت العاصفة في الخارج تزيد من شعورها بالراحة مثلما تفعل مع ابنها.

وانتهت من تنظيف الأطباق، فجلست عارية الرجلين تحدق فيهما على الضوء الخافت الذي ينبعث من النوافذ المحطمة، ولم تكن في ساقيها أية تجاعيد وكان لون بشرتها كالكهرمان.

– كنت أستطيع وأنا هكذا أن أنجب أربعة أو خمسة أطفال آخرين، ولكن لمجرد هذه الفكرة امتلأ قلبها الطاهر بالندم، وأسرعت بالالتفاف في ملابسها وانحنت أمام صورة زوجها.

وكان الممر الذي سلكه الغلام إلى الفنار قد تتحول إلى سيل جبلي بفضل الأمطار وكان يزيل آثار أقدامه، ووجد صعوبة في السير بسبب حذائه الكاوتشوك، ونظراً لأنه لا يحمل شمسية فقد كان يشعر بالمطر ينزل من شعره إلى داخل ياقة معطفه وواصل التسلق، وواجه العاصفة، ولم يكن يتحداه، بل كان يشعر بالسعادة وهدوء الطبيعة يحيط به وكانت مشاعره في وئام تام مع ثورة الطبيعة الحالية،

ومر بمنحدر السيدة ورأي المنزل المحيط بالفنار، والعاصفة تحيط به، وجميع نوافذه مغلقة، وستائره مسدلة، وواصل سيره إلى الفنار، ولم يكن هناك أثر للحارس داخل برج المراقبة، وكان في داخل الأبواب الزجاجية

التلسكوب متجهاً نحو النوافذ الموصدة، وكانت هناك أوراق متناثرة هنا وهناك.

ووصل شنجي إلى برج المراقبة مبتلاً، وكانت العاصفة مخيفة في هذا المكان المهجور، ففي هذا المكان الذي هو سقف الجزيرة، ولا يوجد أي حائل بين السماء والأرض كانت العاصفة في سيدة الموقف.

ولم يكن المبنى المهدم ونوافذه المفتوحة يستطيع أن يقي أحداً من شر الرياح، بل وبدا كما لو أن البرج يدعو العاصفة إليه ثم يتركها هناك.

ورجع الغلام إلى السلم الخارجي وتطلع إلى الدور الأرضي حيث حضر من قبل لينقل الحطب لأمه، وكان يبدو أن المكان استخدم كمخزن، وكانت نوافذه صغيرة، بحيث لم يتحطم منه سوى واحدة، ورأى أن هذه الغرفة تعتبر ملجأ مثالياً، ولم يعد في المكان من الحطب سوى أربع أو خمس حزم.

وقال شنجي لنفسه:

– أنه أشبه بالسجن؟!

ولم تمض لحظة على دخول شنجي حتى أحس ببرودة، وعطس بشدة، فخلع معطفه الواقي، وراح يتحسس جيوب سرواله عن الثقاب الذي علمته حياة البحر بأن يحمله معه دائماً.

وقبل أن يعثر على الثقاب لمست أصابعه الصدفة التي عثر عليها فوق الشاطئ فأخرجها، وراح ينظر إليها على ضوء النافذة، وبعد أن رضي عنها أعادها إلى مكانها.

وجمع شيئاً من الحطب على شكل كومة، ونجح بصعوبة في أن يشعل عود ثقاب، وانتشر الدخان في المكان ثم بدأت النيران تتأجج.

وخلع الغلام سرواله وعلقه قرب النار حتى يجف، ثم جلس القرفصاء، ولم يكن أمامه من شيء سوى الانتظار، وراح يقطع الوقت بوضع أصابعه في ثقوب الصديري الذي يرتديه.

ونسي نفسه عندما أصبح الدفء يسري في أوصاله، ونسي صوت العاصفة، في الخارج، فاستسلم للانتعاش الذي ولده إخلاصه، ولم يبال بالتفكير في الأشياء التي قد تمنع الفتاة عن الحضور، ولهذا مال برأسه فوق ركبتيه ونام.

وعندما فتح شنجي عينيه، كانت النار مشتعلة أمامه، ولا زالت تتوهج كما لو أنه أغلق عينيه منذ لحظات، ولكن شاهد خيالاً غريباً يقف خلف النار وتساءل عما إذا كان يحلم.

وكانت فتاة عارية تقف هنالك، ورأسها مائل إلى الأمام تحمل بيديها قميص نوم، وتعرضه للنار حتى يجف، وكان الجزء العلوي من جسدها مكشوفاً.

وعندما أدرك أنه ليس في حلم طرأت شنجي فكرة أنه بالحيلة وبإدعاء النوم يستطيع أن يرقب الفتاة بعينيه النصف مغلقتين، ولكن كان جسدها من الجمال بحيث لا يستطيع المرء أن يراه دون أن يتحرك.

والمعروف أن النسوة اللائي يغصن في البحر اعتدن على تجفيف جسدهن كله أمام النار عند الخروج من الماء، ومن ثم فإن هاتسو لم تفكر لحظة قبل أن تقوم بهذا العمل الآن. إذ عندما وصلت إلى مكان اللقاء كانت النار مشتعلة والغلام هناك نائم، لهذا حزمت أمرها بسرعة، كالطفل، فقررت ألا تضيع وقتاً في تجفيف ملابسها وجسدها أثناء نوم الغلام، وبالاختصار فاأن فكرة وجودها عارية أمام رجل لم تطرأ لها، فقد كانت عارية أمام النار، لأن هذه هي النار الوحيدة ولأنها كانت مبتلة.

ولو كانت لدى شنجي خبرة أوسع بالنساء وهو ينظر إلى هاتسو العارية عبر النار في الخرائب التي تحيط بها العاصفة لرأى أن جسدها جسد ملاك، فقد كانت بشرتها ناعمة بيضاء، وفوق صدرها نهدان قويان ينظر كل منهما في جهة كما لو كان ذلك من قبيل الحياء، ويرفعان برعمين في لون الورد، ونظراً لأن شنجي يخشى من اكتشاف أمره لم يفتح عينيه وظل شكل الفتاة غير واضح وكان لا يميز بين ألسنة اللهيب نفسها.

ولكن بعد ذلك فرك الغلام عينيه، وتحرك رمش عينيه، بعد أن جسمته النار على وجنتيه، وبسرعة أخفت الفتاة صدرها بالثوب الأبيض الذي لم يجف بعد وقالت:

– لا تفتح عينيك!

وأغلق الغلام عينيه على الفور، وبعد أن فكر رأى أنه من الخطأ أن يدعي النوم، ولكن هل كانت غلطة أن صحا عندما فعل؟ وتشجع شنجي لهذا، وفتح عينيه.

وكانت الفتاة في حيرة مما تفعل، فلم تبدأ حتى بارتداء ثوبها، وصاحت مرة أخرى بصوت كالطفل:

– لا تفتح عينيك!

ولكنه لم يقم بأي محاولة للتظاهر بإغلاق عينيه، وبقدر ما يتذكر اعتاد على أن يرى نساء القرية عراة، ولكن هذه أول مرة يرى فيها الفتاة التي يحبها عارية. هناك حاجز بينهما، يجعل النشاط اليومي صعباً والأشياء العادية يجعلها أموراً شاقة ، ووقف على قدميه، ووقف الاثنان وجهاً لوجه لا يفصلهما سوى النار.

وتحرك الغلام قليلاً نحو اليمين فتراجعت الفتاة إلى اليمين أيضاً، وظلت النار بينهما إلى الأبد.

– لماذا تهربين؟

– لأنني خجلة!

ولم يقل الفتى: أذن ارتدي ملابسك ، وكان يريد أن ينظر إليها، ثم طرأ له شعور بأن يقول شيئاً فسألها سؤالاً صبيانياً:

–وما الذي يجعلك خجولة؟ فقالت الفتاة في جواب ساذج رغم أنه مثير للدهشة:

–إذا خلعت ملابسك، أنت! فلن أشعر بالخجل؟!

وكان شنجي في حيرة، وبعد تردد راح يخلع ملابسه دون أن ينبس بكلمة واحدة وعنت له فكرة أن هاتسو قد تهرب وهو يخلع ملابسه، فراح ينظر نحوها حتى عندها خلع الصديري وحجب وجهه عنها، وبعد ذلك وقف الشاب العاري أجمل مما كان وهو يرتدى الملابس، ولا يلبس سوى مئزر ضيق، واتجهت أفكاره إلى الفتاة التي تقف قباله ففقد جسده الإحساس بالخجل فقالت دون أن تدري جسامة ما تقول:

– نعم.

– لماذا لم تخلع جميع ملابسك؟

وعاد الإحساس بالخجل، وأحمر جسد الغلام على ضوء النار وراح يتكلم ثم قال في النهاية وقد أوشكت أصابعه أن تحترق بالنار وهو يحدق في ثوب الفتاة:

–إذا خلعت هذا فسأفعل.

وابتسمت هاتسو ولكن شنجي وهاتسو نفسيها لم يدريا معنى هذه الابتسامة وألقت الفتاة بثوبها وراء ظهرها، ورآها الغلام وهو واقف أشبه بتمثال بطل، ولم يرفع عينيه عنها وخلع مئزره.

وفي هذه اللحظة زأرت العاصفة في الخارج وكانت الأمطار والرياح تعصف بقوة وجنون، وفي تلك اللحظة أدرك الاثنان وجود العاصفة، وأن المحيط هنالك يضطرم بجنون.

وتراجعت الفتاة بضع خطوات، ولم يكن ثمة من مخرج، فالحائط يلمس ظهرها، وصاح الفتى:

– هاتسو.

وقالت الفتاة وهي تتنفس بصعوبة ولكن بصوت واضح:

– اقفز عبر النار!

ولم يتردد الفتى لحظة، وقفز وفي لمحة كان أمامها، ولمس صدره صدرها وقال لنفسه في لحظة اضطراب:

– هذه هي النعومة التي تخيلتها ذلك اليوم تحت الصديري الأحمر.

واحتوى كل منهما الآخر بين ذراعيه الأرض، وسقطت الفتاة على الأرض، وجذبت معها الفتى.

وقال:

– أن قطع الخشب تؤذيني، وحاول الفتى أن يضع ثوبها تحت جسدها فمنعته، ولم تعد يداها تعانقه، فقد رفعت ركبتيها، وحولت الثوب إلى كرة ووضعته أسفل خصرها ولفته حول جسدها.

وكانت الكلمات التي تفوهت بها هاتسو بعد ذلك مليئة بالفضيلة، هذا أمر مشين. أنه مشين أن تفعل الفتاة ذلك قبل أن تتزوج.

فسألها الفتى:

– هل تعتقدين ذلك؟

– أنه مشين؟

وكانت عيناها مغلقتين فراحت تتكلم بدون تردد بلهجة يبدو فيها اللوم وتطييب الخاطر:

– أنه مشين في الوقت الحاضر، لأنني قررت أن أتزوجك أنت؟ وإلى أن أفعل ذلك، فما نقوم به مشين.

والمعروف أن شنجي يحترم الأشياء الأخلاقية كثيراً، وأكثر من ذلك أنه لم يعرف النساء من قبل ولهذا فقد اعتقد أنه انتهك الأساس الأخلاقي للمرأة، فلم يصر على مواصلة ما كان يريد.

وكانت ذراعاه لا زالت تحيطان بالفتاة، وكان الاثنان يسمعان خفقات جسد كل منهما، وأشعلت القبلة الطويلة الاضطراب في الفتى الذي لم يشبع شهوته، ولكن في لحظة ما تحول ذلك الألم إلى زهو غريب.

ومن حين لآخر كانت النار تحدث صوتاً. وسمعا هذا الصوت، أو صفير العاصفة ممزوجة بخفقات قلبيهما، وبدا لشنجي أن هذا الشعور المستمر بالنشوة والاضطراب في البحر، وصوت العاصفة، كل هذا كان يدق مع إيقاع الطبيعة العنيف وكجزء من عاطفته كان هناك شعور.

أبدي بالسعادة المقدسة الطاهرة.

وابتعد بجسده عنها، وقال بصوت هادئ شهم:

– لقد وجدت اليوم على الشاطئ صدفة جميلة فجئت بها إليك.

– أوه أشكرك! أين هي؟!

وذهب شنجي إلى حيث ملابسه وبدأ يرتديها، وفي الوقت نفسه ارتدت هاتسو ثوبها، وبعد أن فرغ كل منهما من ارتداء ملابسه به أحضر لها شنجي الصدفة.

فقالت:

– أنها لي! كم هي جميلة ..؟ ثم رفعتها بيدها وقالت:

– أنها تشبه المرجان .. أليس كذلك؟ أليست جميلة تصلح لتزيين الشعر؟

وجلس شنجي على الأرض قرب الفتاة، وأما وقد ارتدى كل منهما ملابسه فأنهما يستطيعان تبادل القبلات.

وعندما شرعا في العودة لم تكن العاصفة قد هدأت، ولم يفترق عنها شنجي في هذه المرة عند الفنار، ولم يسلك طريقاً مختلفاً خوفاً مما قد يفكر فيه سكان الفنار، بل سارا في الممر السهل الذي يؤدي إلى مؤخرة الفنار وامسك كل منهما بيد الآخر، ونزلا السلم الحجري الذي يؤدي من الفنار عبر المنزل.

وكانت تشيوكو قد عادت إلى المنزل، وفي اليوم التالي استحوذ عليها الضيق ولم يحضر شنجي لرؤيتها، وفي النهاية أقيم اجتماع عادي لفصل الاتيكيت فجاءت فتيات القرية إلى المنزل.

وكان هناك وجه غير مألوف بينهم، وأدركت تشيوكو أن هذا لابد وأنه وجه هاتسو التي تحدث عنها ياسو، وتبين لها أن ملامح هاتسو أجمل مما قال عنها سكان الجزيرة، ومن فضائل تشيوكو

القديمة أن المرأة التي لديها درجة بسيطة من الثقة بالنفس لن تتوقف عن استخراج عيوب امرأة أخرى ولم تكن تشيوكو أقل صدقاً من الرجل في أنه يتعرف على أي شيء جميل في أي امرأة ما عداها.

ولم يكن أمام تشيوكو من شيء لتقوم به، فقد بدأت تدرس تاريخ الأدب الإنجليزي المقرر عليها، ولم تكن تعرف شيئاً مفرداً من أعمال هؤلاء الأدباء. فراحت تذكر أسماء جماعات من شاعرات عصر فيكتوريا كرتسينا جورجينا روزيتي، آدليد آن بروكتر، جان أنجلو، أوجستا ويبستر، مثلما كانت تذكر الترانيم البوذية، وكان حفظ الكلام غيباً من مزايا تشيوكو، إذ كانت تسجل كل ما يقوله البروفيسور وكانت أمها دائماً إلى جانبها، تواقة لكي تأخذ معرفة جديدة من ابنتها وكان الذهاب إلى الجامعة هو فكرة تشيوكو إلا أن حماس الأم ومساندتها لها تغلبت على إحجام الأب.

وكان تعطشها للعلم والمعرفة يزداد بانتقالها من فنار إلى فنار، ومن جزيرة نائية إلى أخرى، وكانت الأم تصور حياة ابنتها على أنها حلم مثالي، ولم تدرك أبداً تعاسة ابنتها الداخلية.

وفي صبيحة يوم العاصفة تأخرت الأم وابنتها في النوم، إذ كانت العاصفة تبشر بالهبوب منذ الليلة السابقة، وظلتا يقظتين طوال الليل مع حارس الفنار، الذي حمل مسئولياته محمل الجد، وعلى خلاف العادة كانت وجبة منتصف النهار هي الفطور أيضاً، وبعد رفع المائدة أمضى الثلاثة الوقت في الداخل إذ احتجزتهم العاصفة.

وبدأت تشيوكو تشتاق لطوكيو، تشتاق لها من حيث السيارات تنطلق في الشوارع على الرغم من العاصفة.

وفي المدينة كانت الطبيعة قد خضعت للإنسان، وما بقى من قوة بسيطة لها تعتبر عدواً، وأما في الجزيرة فالناس يتحالفون مع الطبيعة بحماس ويؤيدونها.

وضاقت تشيوكو ذرعاً بالدراسة، فنظرت من النافذة تحدق في العاصفة التي حبستها داخل المنزل، فالعاصفة توحي بالخمول، وزئير الموج يأتي مثل ثرثرة السكير.

ولسبب ما تذكرت تشيوكو الثرثرة التي انتشرت عن رفيقة خدعها الرجل الذي كانت تحبه، وكانت الفتاة تحب ذلك الرجل لشهامته وطهارته، وقد قال ذلك علناً، وبعد تلك الليلة أحبته لقسوته وعناده، لكنها لم تذكر هذا لأحد.

وفي هذه اللحظة رأت تشيوكو شنجي ينزل السلم وهاتسو متعلقة به وكانت تشيوكو مقتنعة بفائدة دمامة وجه مثل وجهها لأن مثل هذا الوجه يستطيع أن يخفي العواطف أكثر مما يستطيعه الوجه الجميل.

وابتعدت عن النافذة، وكانت أمها تجلس أمام الموقد تحيك الثياب والأب يدخن بهدوء، والعاصفة تزأر في الخارج، وأما في داخل المنازل فالهدوء، ولم يكن يوجد أحد ينصت لتعاسة تشيوكو.

وعادت الفتاة إلى مكتبها وفتحت كتاب اللغة الانجليزية، ولم يكن للكلمات أي معنى، ولم يكن هناك سوى خطوط في الصفحة وبين السطور، صورة الطيور وهي تحلق أمام ناظريها.

وقالت الفتاة لنفسها:

–عندما عدت إلى الجزيرة، وتراهنت على طير البحر الذي يحلق فوق برج "طوبا" هذا هو معنى تلك العلاقة.

الفصل التاسع

ووصلت رسالة من هيروشى عن رحلته، وقد كتبها على كارت بريد يصور معبد شميزو الشهير في طوكيو، وقد أرسلها بالبريد المستعجل، ولو أرسلها بالبريد العادي لما وصلت قبيل عودته إلى الجزيرة، وقبيل قراءتها غضبت الأم قائلة أن ابنها أنفق نقوداً كثيرة لإرسالها بالبريد المستعجل وأن أبناء اليوم لا يعرفون قيمة النقود.

وكانت رسالة "هيروشي" تدور حول مشاهدته لأحد الأفلام لأول مرة، ولم يتحدث كثيراً عن المناطق الشهيرة والتاريخية التي شاهدها وتقول الرسالة: لقد سمحوا لنا في أول ليلة في كيوتو بأن نفعل ما نشاء، لقد ذهبت مع سوشان وكاتشان إلى إحدى دور السينما الكبرى القريبة، وكانت كبيرة مثل القصر، ولكن المقاعد خفيفة، وعندما حاولنا أن نجلس عليها وجدنا متاعب كبيرة ولم نشعر بالراحة أبداً. وبعد دقائق صباح الرجل الذي يجلس خلفنا. خفضوا رءوسكم وكنا قد فعلنا ذلك، واعتقدنا أنه يمزح، ثم أظهر لنا ما الذي ينبغي أن نقوم به وقال أنهم يطوون المقاعد، وإذا قلبناها تصبح كراسي. فهززنا رءوسنا، وأدركنا الغلطة التي ارتكبتاها. وعندما قلبنا المقاعد كانت مريحة للغاية، وقلت لنفسي:

– أريد أن تجلس والدتي يوماً على هذه المقاعد!

وبينما كان شنجي يقرأ الرسالة بصوت عال على مسمع أمه، ذرفت دموعها عند سماعها الجملة الأخيرة، ووضعت الكرت على الرف المقدس وجعل شنجي يركع معها للصلاة كي لا تعرقل العاصفة رحلة "هيروشي" وألا يصيبه مكروه قبيل عودته بعد غد. وبعد لحظة كما لو طرأت لها الفكرة حالاً بدأت تكيل السباب لشنجي لأن قراءته وكتابته ضعيفتان وكيف أن هيروشي أكثر منه وسامة وترتيباً، وما تدعوه بوسامة هيروشي لم يكن سوى قدرته على جعلها تذرف دموع السعادة.

ولم تضع وقتاً في أن تهرع إلى منزل أصدقاء هيروشي وهما سوتشان وكاتشان لكي تريهما بطاقة البريد، وفي أمسية ذلك اليوم عندما ذهبت هي وشنجي إلى الحمام العام قابلت زوجة مدير البريد فانحنت على ركبتيها وسط البخار لكي تشكرها لأن البريد المستعجل يتم بنظام ممتاز.

وانتهى شنجي من الحمام بسرعة وانتظر أمام مدخل الحمام لكي تخرج والدته من جناح النساء، وكان الليل دافئاً والبحر هادئاً.

ولحظ شنجي شخصياً يقف على بعد خطوات في الشارع وظهره نحو شنجي يبدو أنه يتطلع إلى سطح أحد المنازل، وكان الشخص يقف ويداه في جيبه وكان يقطع الوقت بأن يضرب بحذائه الأرض، وكان المذكور يرتدي معطفاً جلدياً رمادي اللون، ولم يكن كل الجزيرة شخص في يستطيع ارتداء مثل هذا المعطف، لهذا أدرك شنجي أن هذا الشخص هو ياسو.

وفي الوقت الذي كان شنجي على وشك نداداته، التفت ياسو فابتسم شنجي؛ إلا أن ياسو حدق فيه، ولم يتغير التعبير الواضح الذي ارتسم على وجهه ثم حول وجهه مرة أخرى.

ولم يعتبر "شنجي" هذا السلوك مهيناًً إلا أنه بدا له أنه شاذ، ثم خرجت أمه من الحمام، وسار معها صامتاً نحو المنزل.

وفي اليوم السابق، وبعد أن عادت القوارب من الصيد في جو رائع أعقب العاصفة ذهبت تشيوكو لترى ياسو، وقالت أنها جاءت إلى القرية لتتسوق مع أمها، وقررت أن تزوره، وأوضحت زيارتها وحدها إلى منزل ياسو بأن أمها راحت إلى زيارة منزل مدير الجمعية التعاونية القريبة من هناك

ولم تكن رواية تشيوكو لرؤيتها شنجي وهاتسو معاً وهما يهبطان من الجبل، وقد تعلق كل منهما بالآخر قد جعلت الحادث أقل خطورة، وكانت روايتها لطمة لكبرياء ياسو، فراح يفكر فيها طوال الليل. وفي الليلة التالية عندما رآه شنجي كان يقرأ لائحة موضوعة تحت إفريز منزل جانب الشارع المنحدر الذي يمر في وسط القرية.

وكان في أوتاجيما مصدر بسيط للماء يصل إلى أدنى حد له في موعد بدء السنة الجديدة، مما يؤدي إلى منازعات لا تنتهي حول الحقوق في المياه، وكان مصدر المياه الوحيد في القرية عبارة عن جدول صغير قرب الشارع الذي يقع قرب وسط القرية، وإبان الموسم الرطب أو بعد الشتاء الغزير

يمكن أن يتحول الجدول إلى مستنقع موحل. تقوم النساء على ضفتيه بالغسيل والثرثرة، ويقيم الأطفال احتفالات على الضفاف للسفن الحربية التي صنعوها، وإبان الجفاف يصبح الجدول أرضاً يابسة.

وهناك ينبوع يغذي الجدول بالمياه، وربما لأن الأمطار هطلت على قمم جبال القرية تحولت المياه إلى الينبوع. ومهما كان السبب فقد كان هذا الينبوع لا مثيل له في الجزيرة، ومنذ عهد بعيد أعطيت حكومة القرية سلطة تحديد النظام الذي يحصل به السكان على الماء، وهذا النظام يتغير كل أسبوع.

وكان الفنار يخزن مياه الأمطار في خزان، وأما سكان القرية فيعتمدون على الينبوع، وكل أسرة تحصل على ما تحتاجه من الماء في ساعة معينة في الليل، وكان استخراج المياه من عمل النساء.

وهكذا كان ياسو ينظر إلى لائحة ضخ الماء الموضوعة حيث يمر الناس، وعثر على اسم مياتا مكتوباً أمام جدول الثانية صباحاً وكان ذلك دور هاتسو.

ولعق ياسو لسانه، وتمنى لو أن الموعد لا زال موسم الإخطبوط لأن الزوارق لا تخرج مبكرة في الصباح، وإبان موسم السمك الذي اقترب الآن، لابد للزوارق من أن تصل إلى مناطق الصيد في ممر ايراكو عند ضوء الفجر، ولهذا كانت جميع البيوت تعد الفطور في الثالثة صباحاً على أقصى تقدير.

وحتى الآن فقد كان هذا أفضل مما هو الحال في الأسبوع القادم عندما يحين دور هاتسو في الثالثة صباحاً، وأقسم ياسو أنه سينال هاتسو قبيل خروج زوارق الصيد في الصباح التالي.

وعندما وقف ينظر إلى اللوحة قرر ذلك عندما رأى شنجي يقف أمام مدخل الرجال في الحمام، وضايقته رؤية شنجني إلى حد أنه نسى تمسكه بالرسميات والتفت عائداً إلى المنزل.

وحينما وصل إلى المنزل نظر ياسو بطرف عينه إلى غرفة الجلوس حيث كان أبوه وأخوه الأكبر يجلسان معاً، ويتجاذبان الحديث، ويستمعان إلى أنشودة من المذياع، وتوجه ياسو مباشرة إلى غرفته في الدور الثاني حيث أشعل لفافة تبغ وقد انتابه الغضب.

ونتيجة لخبرته وطريقة تفكيره رأي المسألة على النحو التالي: نظراً لأن شنجي أغوى هاتسو فهو لم يعد خاماً جاهلاً للنساء، وطيلة الوقت الذي كان يشترك فيه في اجتماعات رابطة الشباب كان يجلس ببراءة، يبتسم ويصغى باهتمام وهو طيلة الوقت يغري النساء، ذلك الثعلب الملعون، ومع ذلك فإنه أمام صدق ملامح وجه شنجي فحتى ياسو لا يستطيع أن يصدق أن هذا الغلام يمكنه أن يغوي هاتسو عن طريق الخداع، فالنتيجة النهائية أذن وهذه فكرة لا تحتمل أبداً أن شنجي وصل إلى الفتاة مباشرة وبأمانة.

وظل ياسو طوال تلك الليلة يحاول أن يظل ساهراً ولكن لم يكن الأمر يحتاج إلى ذلك، فأن العداء الذي شعر به نحو شنجي والغيرة التي شعر بها لأن شنجي سبقه إلى الفتاة كان يكفي لكيلا يعرف النوم إليه سبيلا.

وكان ياسو يفخر بأن معه ساعة ذات عقارب مضيئة، وفي تلك الليلة لم يخلع الساعة، بل نام وهو يرتدي معطفه وسرواله، ومن حين لأخر كان ينصت إلى الساعة، وينظر إلى عقاربها المضيئة، واعتقد أن مجرد حيازته لمثل هذه الساعة الرائعة تعطيه الحق في أن يكون محبوباً لدى النساء.

وفي الساعة الواحدة والثلث انسل ياسو من المنزل، وفي الظلام الدامس كان من السهل سماع هدير الموج، وكان شعاع القمر يضيء السماء والهدوء يخيم على القرية.

ولم يكن في الجزيرة سوى أربعة مصابيح في الشارع أحدهما عند الميناء، واثنان على طول الشارع حتى منتصف القرية، والرابع على الجبل قرب الينبوع، وباستثناء المعدية لم يكن في الميناء سوى زوارق صيد، ولم تكن هناك أنوار تشع من سواري الزوارق. وقد أطفأت المنازل الأنوار كلها، وعدا ذلك ففي هذه القرية التي تصيد السمك حيث الأسطح من الأجر والصفيح لم تكن أسطح المنازل سميكة.

وقطع ياسو الشارع بسرعة واتجه إلى اليمين دون أن تحدث أقدامه أي صوت، ومر بفناء المدرسة الابتدائية، وصعد ياسو السلم الحجري

قرب الجدول حتى وصل إلى بقعة يستطيع عندها أن يسمع صوت الينبوع بل واستطاع أن يرى معالم الينبوع على ضوء مصباح الشارع.

وكانت المياه تتدفق من بين الصخور، إلى حوض حجري ثم تتدفق إلى حافة حجر كبير، وكانت هناك بومة تنعق معه دخل قرب الينبوع.

واختبأ ياسو وراء عامود المصباح، وكان صوت أجنحة الطيور يرتفع وهي تطير، ومال ياسو على شجرة كبيرة وراح ينتظر، يحاول أن يحدق في ساعته.

وأشرفت الساعة على الثانية، ورأى ياسو هاتسو تعبر ساحة المدرسة تحمل معها جردل ماء على كل من جانبي عمود خشبي على كتفيها، وكان شكلها منطبعاً في ضوء القمر.

ورغم أن جسد المرأة لا يلاءم العمل الليلي فأن النساء والرجال الأغنياء والفقراء في الجزيرة سواء، عليهم أن يقوموا بأعمالهم، واجتازت "رو بست هاتسو" _التي جعلتها حياة الفوضى امرأة قوية البنية_ السلم الحجري بسهولة.

وفي النهاية، وضعت هاتسو أوعية الماء قرب الجدول، وكانت هذه هي اللحظة التي اعتزم ياسو أن يقفز فيها، ولكنه تردد الآن وقرر ألا يفعل حتى تنتهي من عملها. واستعد للقفز، عندما حانت اللحظة، فوقف وامسك بغصن عال بيده اليسرى، ثم وقف ساكناً، يتخيل نفسه تمثالاً

حجرياً، وراقب يدى الفتاة القويتين، وهي تملأ الأوعية، وقد جعله المنظر يتخيل مدى جمال جسدها.

وطيلة الوقت كانت الساعة المضيئة التي يفخر بها ياسو تتلألأ وتحصي الثواني، وأثار ذاك سرباً من الدبابير في عش فوق نفس الغصن وأثار فضولها.

وطار أحد الدبابير نحو الساعة ليجدها داخل صندوق من الزجاج يحميها، لهذا وجه الدبور زبانته نحو به ياسو فصرخ هذا، وانتصبت هاتسو واقفة، وتحولت نحو ذلك الاتجاه، ولكنها لم تصرخ، وفي لحظة رفعت الحبال من عمود الخشب، واتخذت وضعاً دفاعياً.

واعتقد ياسو أن منظره لابد أثار الأسف في نظر "هاتسو" وتراجعت الفتاة خطوة أو خطوتين أمامه. واحتفظت بالموقف الدفاعي نفسه، وقرر ياسو أنه من الأفضل أن يحول الأمر إلى نكتة فانفجر ضاحكاً:

– ها أعتقد أنني أدخلت الفزع في نفسك. لقد اعتقدت أنني "بعبع" .. أليس كذلك؟

– نعم أيها الأخ ياسو!

– لقد فكرت أن أختبئ هنا وأخيفك.

– لكن في مثل هذا الوقت من الليل؟

ولم تدرك الفتاة مدى ما كانت عليه من فتنة، وربما كانت تدرك لو فكرت في الأمر بعمق، ولكنها حتى الآن قبلت تفسير ياسو بأنه اختبأ هناك من أجل إخافتها وليس لأي سبب آخر.

وفي لحظة استغل ياسو تصديقها، وأخذ منها العمود، وأمسك بيدها اليمنى، وكان جلد معطف ياسو يحدث صوتاً.

واستعاد ياسو رباطة جأشه، ووقف يحدق في ياسو، وقد امتلك زمام نفسه، فأراد أن ينال الفتاة بسهولة، وراح يقلد من غير وعي الطريقة المكشوفة التي تخيل أن شنجي قد استخدمها في مناسبة مماثلة.

فقال:

– حسناً! هل ستنصتين إلى ما سأقوله؟ وستندمين إذا لم تفعلي؟ لذا من الأفضل أن تنصتي إلا إذا أردت أن يعلم الجميع بما بينك وبين شنجي.

واحمر وجه هاتسو وصارت تتنفس بصعوبة:

– اترك يدي؟! وماذا تقصد بما بيني وبين شنجي؟

– لا تتظاهرى بالبراءة كأنك لم تكوني قد لعبت مع شنجي، لا تحاولي خديعتي!

– لا تقل مثل هذه الأشياء المضحكة! لم أفعل شيئاً من هذا!

– لا أنني أعرف كل شيء عن هذه الحكاية، ماذا فعلت مع شنجي فوق الجبل أثناء العاصفة!

ها! انظروا إلى احمرار وجهها! هل ستفعلين نفس الشيء معي تعالي! تعالي.

– أغرب عني! أغرب عن وجهي!

وحاولت أن تهرب ولكنه لم يدعها تفعل لأنها ستخبر أباها إذا رجعت قبل أن يحدث أي شيء، ولكن بعد ذلك لن تخبر أحداً، وكان ياسو مدمناً على قراءة المجلات الخليعة التي تأتي من المدينة بما فيها من اعترافات للفتيات اللاتي غرر بهن، وما أروع هذا الشعور في أن يمكن ياسو من أن يفعل هذا بفتاة إذا كانت لن تخبر أحداً.

واستطاع "ياسو" أن يوقع هاتسو على الأرض قرب النبع، وانقلب جردل وأريق الماء فوق الأرض، وعلى ضوء المصباح كان أنف هاتسو يهتز وعيناها تبرقان، وشعرها قد بلله الماء.

وفجأة ضمت هاتسو شفتيها وبصقت في وجه ياسو، وزاد هذا من غضبه وهياجه، وشعر بصدرها يعلو ويهبط تحته، فدفع وجهه نحو وجنتيها.

وفي تلك اللحظة صرخ ياسو، وقفز على قدميه، فقد لسعه الدبور مرة أخرى في رقبته في هذه المرة، واستشاط غضباً وحاول أن يمسك بالدبور وأثناء ذلك راحت هاتسو تجري نحو السلم الحجري، وكان ياسو في

دوامة ارتباك، فهو منهمك بمطاردة الدبور، ولا زال في مقدوره أن يرضي رغبته في الإمساك بهاتسو، ولكن من لحظة لأخرى لم يستطع أن يحدد أي عمل يقوم به وبأي نظام؟ ولكنه أمسك بهاتسو مرة أخرى، وحالما أوقعها على الأرض بجسدها الغض قام الدبور بلسعه في قاعدته لسعة قوية.

واكتسبت هاتسو خبرة في فن الهرب، وعندما قفز ياسو هربت إلى الجانب البعيد للينبوع، وعندما اختفت في غابة من الأشجار، وجرت للاختفاء وراءها وشاهدت صخرة كبيرة فرفعتها بين يديها ونظرت نحو الينبوع.

وفي تلك اللحظة لم تدرك الفتاة أياً من الإلهة هب لنجدتها، ولكن عندما شاهدت أعمال ياسو الحمقى على الجانب الآخر من الينبوع أدركت أن هذا من عمل دبور بارع.

وعندما أدرك أخيراً أنه طرد الدبور، راح يجفف عرقه، ثم أخذ يبحث عن الفتاة، فلم يجد لها أثراً، وصار ينادي عليها بصوت خافت:

وأحدثت هاتسو صوتاً بأصابعها .. فقال لها:

–تعالي! من هناك؟ ألن تحضري؟ أعدك بألا أفعل شيئاً! كلا لن أفعل! لن أفعل! انزلي أرجوك!

وبدأ يتسلق فأمسكت الفتاة بالحجر فتراجع:

– ماذا ستفعلين؟ أحذري، هذا خطير!؟ ما الذي أستطيع أن أفعله لأجعلك تنزلين؟!

و كان "ياسو" يحب أن يهرب دون أي ضجة أخرى، إلا أن خوفه من أن تخبر أباها جعله يلح:

– أرجوك! سأفعل كل ما تقولين! لكن انزلي، أعتقد أنك ستخبرين أباك بما فعلت؟ أليس كذلك؟

ولم تجب الفتاة.

– تعالي أرجو ألا تخبري أباك؟ سأفعل كل ما تقولين إذا لم تخبريه، ماذا تريدينني أن أفعل؟

– حسناً. إذا ملأت الجردل بالماء وحملته إلى المنزل فلن أفعل.

– حقاً.

– حقاً.

– حسناً سأفعل، أن ذلك العم تيرو شخص يخشاه الإنسان.

وراح ياسو يقوم بالمهمة صامتاً وبإخلاص، وكان شكله يثير الضحك فقد ملأ الجردل الذي انسكب الماء منه، ثم وضع الاثنين على كتفه وانطلق إلى المنزل.

وتطلع خلفه بعد لحظة وشاهد هاتسو نزلت دون أن يعلم بهذا وكانت تسير خلفه على بعد ياردتين، وقد فعلت ذلك دون أن تبتسم وعندما رأت أنه توقف توقفت ولما عاود السير حذت حذوه.

وكانت القرية تغط في نومها، وعندما هبط السلم الحجري سمعا صياح الديوك من جميع الجوانب دلالة على أن الفجر قد اقبل.

الفصل العاشر

عاد أخو شنج إلى الجزيرة، وكانت الأمهات ينتظرن على رصيف الميناء لاستقبال أبنائهن، بينما الأمطار تنهمر، وتحجب البحر عن الأنظار، وكانت المعدية على بعد مائة ياردة من الرصيف عندما ظهرت للعيان عبر الضباب.

وراحت الأمهات بصوت واحد ينادين أبناءهن، بعد أن رأين القبعات والمناديل التي يلوح بها الأبناء وهم فوق ظهر المركب.

وحتى عندما وصل الزورق ونزل التلاميذ، فأنهم ابتسموا فقط ثم راحوا يلعبون معاً، وكانوا لا يجيدون إظهار العواطف لأمهاتهم أمام بعضهم بعضاً.

وعندما وصل هيروشي إلى المنزل كان متأثراً إلى حد أنه لم يستطع أن يهدأ وراح يروي للأسرة ما وقع له من أحداث، دون أن يذكر شيئاً من الأماكن التاريخية التي زارها مع الرفاق.

ولا شك أن هيروشي عاد بانطباعات عميقة من رحلته، ولكنه لم يستطع أن يترجم هذا إلى كلمات، ولم يستطع أن يتذكر شيئاً مما فعله.

وقد عاد إلى المنزل الذي هو مثلما كان قبل الرحلة، فالدولاب القديم، وساعة الحائط ومذبح بوذا، ومائدة العشاء، ونفس الأم العجوز، وهناك موقد الطهو والحصر القش القذرة، وهذه الأشياء يمكنها أن تفهمه بدون كلمات، وكل هذه الأشياء وأمه معها تحط به لكي يروي لها ما فمله في الرحلة.

وهدأ "هيروشي" في النهاية عندما عاد شنجي من الصيد، وبعد العشاء فتح مذكرة الرحلة، وراح يحدث أخاه وأمه عن رحلته، ورضي الاثنان، وتوقفا عن سؤاله عن تلك الرحلة .

وعادت الأمور إلى طبيعتها، وأصبح وجوده نفسه وجوداً فيه كل شيء يفهم دون حاجة إلى كلام، وعاد إلى الأشياء القديمة، فنام نوماً عميقاً، وأوشكت أجازة الصيف عند هيروشي على نهايتها، لهذا كان يلعب بكل قوته منذ استيقاظه حتى موعد نومه.

وكان في الجزيرة أماكن للعب، لقد شاهد هيروشي وأصدقاؤه الأفلام الغربية التي سمعوا عنها فقط حتى ذلك الحين، وعرفوا لعبة رعاة البقر والهنود، فأصبحت من الألعاب المفضلة لديهم.

وكانت غربان البحر في الجزيرة طيوراً عابرة، وفي ذلك الوقت من العام كان يختفي الواحد بعد الآخر، وانتشر تغريد البلابل في القرية.

وكان رأس بنتن في الطرف الجنوبي من الجزيرة يذكر التلاميذ بالحي الغربي .. إذ أن الجانب الغربي من الرأس كان من الحجر الجيري، وهو يقود إلى مدخل كهف هو من أكثر الأماكن غموضاً في أوتاجيما.

وأما مدخل الكهف فكان ضيقاً عرضه ياردة ونصف، وارتفاعه قدمان، وأما الممر إلى داخل الكهف فكان يتسع تدريجياً إلى مغارة كبيرة من ثلاث طبقات، وحتى تلك البقعة فقد كان الممر مظلماً، ولكن شعاعاً بسيطاً يخترق المغارة، وكان هذا لأن الكهف يتجه عبر الرأس إلى فتحة غير ظاهرة على الجانب الشرقي حيث يدخل البحر ويعلو ويهبط في قاع اسطوانة عميقة في الصخر.

ودخل الأصدقاء الكهف والشموع في أيديهم، وراح بعضهم يقول للآخر: كن على حذر، احترس، وساروا في الممر المظلم، وكان في استطاعتهم أن يروا وجوه بعضهم البعض في الظلام، وهي تتلألأ، وراحوا يفكرون كم هو رائع منظرهم على هذا الضوء، لو أن شعر ذقونهم كانت طويلة كما يفعل الشبان الأشداء.

وكانت العصبة مكونة من هيروشي، سوتشان، وكاتشان؛ وانطلق الثلاثة يبحثون عن كنز هندي في الكهف؛ وتقدم سوتشان الركب، وعندما خرجوا إلى الكهف الكبير استطاعوا أن يقفوا منتصبي القامة؛ فكان رأس سوتشان قد اختلط بقطع من الخشب.

وقال هيروشي وكاتشان لآخر:

– انظر إلى نفسك، أن شعرك عليه علامة ويمكنك أن تكون الرئيس.

ووقف الثلاثة أسفل عبارة باللغة السنسكريتية حفرها شخص مجهول منذ عهد بعيد على الجدران.

وكان البحر يرتطم بالصخور عند الطرف الشرقي من الكهف فيحدث صوتاً مدوياً، وكان صوت الأمواج يختلف عن الصوت الذي تعودوا سماعه في الخارج، وكان صوتاً يرتد من الجدران الحجرية للكهف بحيث يتردد الصدى في الكهف كله. وتذكر هؤلاء الأسطورة التي يرجع تاريخها إلى اليوم السادس عشر والثامن عشر من القرن السادس حينما كان المفروض أن تظهر سبع سمكات قرش بيضاء من مكان ما في البحر.

وفي هذه الليلة تبادل الأولاد أدوارهم، وتبادلوا أدوار الأعداء والأصدقاء بسهولة، واتخذ سوتشان لنفسه دور الزعيم الهندي بسبب العلامات التي ازدان بها شعره، والآخران اتخذا دور حرس الحدود أعداء الهنود، ولكنهما يريدان الآن أن يسألا الزعيم عن سبب صوت الأمواج المخيف، وأصبحا من أنصاره المخلصين.

وفهم سوشان التغيير فوراً، وجلس بشيء من الكبرياء والزهو على صخرة تحت الشموع.

– أيها الزعيم، ما هذا الصوت المخيف الذي نسمعه؟

فقال سوتشان بصوت وقور:

– هذا يا أبنائي يبين لنا أن الرب يظهر سخطه.

وقال هيروشي:

– وما الذي يمكننا القيام به لتهدئة غضب الآلهة؟

– حسناً دعوني أفكر .. آه! إن الشيء الوحيد الذي يجب القيام به هو تقديم قربان له ثم الصلاة.

ثم أخرج الجميع الحلوى الممنوعة من الأرز التي حصلوا عليها من أمهاتهم ووضعوها فوق قطعة من الورق، واحتفلوا بوضعها على صخرة تطل على المدخل.

وسار الزعيم سوتشان بخطى وئيدة بين الاثنين، واتجه نحو المذبح ورفع يديه، وراح ينشد بصوت غريب؛ ثم صلى ومال بنصف جسده إلى الأمام والخلف؛ وسار خلفه "هروشي" و"كاتشان" وهما ينشدان نفس الكلام.

وشعر هيروشي ورفيقاه أنهم شخصيات في فيلم.

ولحسن الحظ بد أن سخط الآلهة قد هدأ، وتضاءل زئير الأمواج، فجلس الجميع على شكل حلقة، وراحوا يأكلون الحلوى من المذبح، وكان طعم الحلوى ألذ من المعتاد.

وحتى مع هذا فقد ارتفع صوت هادر، وتعالى رذاذ الماء على المدخل وبدا الرذاذ أشبه بالشبح الأبيض؛ وبدا كما لو أن البحر يبحث عن فرصة ليختطف هؤلاء الهنود الثلاثة. الذين يجلسون في دائرة داخل الغرفة، ويجرفهم إلى أعماقه.

ورغماً عنهم كان الثلاثة خائفين، وعندما هبت موجة من الريح وتلاعبت بلهب الشموع ثم أطفأت إحداها ازداد خوفهم، ولكن الثلاثة كانوا يحاولون التسابق في إظهار شجاعتهم، وهكذا فأنهم بغريزة الصبية أخفوا خوفهم تحت ستار اللعبة التي يلعبونها.

وتحول "هيروشي" وكاتشان إلى اثنين من الهنود الخائفين.

– أوه! أنا خائف! خائف أيها الزعيم، أن الإله ساخط، ما الذي يمكن أن يكون سبب سخطه؟ أخبرنا أيها الزعيم!

فجلس سوتشان على عرش الحجر يهتز ويرتجف كما لو كان زعيماً، وراح يبحث عن جواب فتذكر الثرثرة التي همس بها سراً عن الجزيرة، خلال الأيام الأخيرة، وقرر ــمن غير أن ينوي سوءاًــ أن يستفيد منها فقال.

– أن سخط الإله جاء نتيجة عمل غير أخلاقي بعيد عن الصواب.
فقال هيروشي:

– غير أخلاقي؟ ماذا تعني؟

– ألا تعلم يا هيروشي؟ أعني، ما الذي فعله أخوك شنجي مع هاتسو ابنة مياتا، لقد فعل معها "أوميكو" وهذا هو سبب سخط الآلهة.

وعندما سمع "هيروشي" يذكر اسم أخيه، وشعر أن شيئاً مشيناً قد قيل عنه اهتاج وصاح في وجه الزعيم:

– ما الذي تقوله عما فعله أخي مع الأخت هاتسو؟ ماذا تعني بأوميكو؟

– ألا تعرف ذلك، أنه يعني أن شاباً قد غشي شابة!

وفي الحقيقة أن سوتشان لا يعرف أكثر من هذا عن هذه الكلمة، ولكنه يعرف كيف يفسر المعنى وهو حانق، وفي غمرة غضب انفض هيروشي على سوتشان، وقبل أن يدرك هذا ما حدث شعر بصفعة على وجهه، وعندما ارتطم سوتشان بالجدار انطفأت الشمعتان.

ولم يبق في الكهف سوى ضوء خافت لا يكفي إلا لكي يرى الثلاثة وجوه بعضهم البعض دون وضوح، وكان هيروشي وسوتشان يقفان وجهاً

لوجه، يتنفسان بصعوبة ولكنهما أدركا الخطر الذي يكون في العراك في هذه البقعة.

وتدخل كاتشان وقال:

– أوقفا القتال! ألا تريان أنه خطر هنا؟

فأشعلوا الثقاب، وعثروا على الشموع ثم خرجوا من الكهف دون أن ينبسوا ببنت شفة؟

وعندما خرجوا من الكهف عادوا أصدقاء كما كانوا ، وبدا أنهم نسوا العراك الذي دخلوا فيه منذ لحظة، وساروا في الممر الضيق وهم ينشدون:

على طول شاطئ بنتن هاتشيجو

وعلى طول حديقة الشاطئ

وكان هذا الشاطئ الذي يبلغ طوله خمسة فراسخ هو أجمل قطعة من ساحل الجزيرة، ويقع على الجانب الغربي من رأس بنتن ٠٠ وفي منتصف الشاطئ ترتفع صخرة ضخمة تدعى "هاتشيجو ايزل" توازي في ارتفاعها منزلاً من طابقين، وكان فوق قمتها عدد من الأولاد يلعبون ويلوحون بأيديهم.

فرد الشبان الثلاثة بأيديهم، وساروا على طول الممر، وكانت الأزهار متفتحة.

وأشار كيتشان إلى البحر عند الشاطئ الشرقي من رأس الجبل وقال:

– انظروا زوارق صيد السمك الكبير.

وفي ذلك الشاطئ كان شاطئ "جاردن" تحيط بغابة جميلة صغيرة، وعند مدخلها رست ثلاثة زوارق لصيد السمك الكبير بلا حراك تنتظر المد، وقال هيروشي:

– انظروا، فتطلع مع أصدقائه نحو البحر الشاسع. ولكن كلمات سوتشان كانت تدوي في أذنيه وتجثم على صدره وتزداد ثقلاً مع مرور الوقت.

وعند العشاء عاد هيروشي إلى المنزل خاوي المعدة، ولم يكن شنجي قد عاد بعد، والأم وحدها تضع الحطب في الموقد، وكان صوت الأخشاب يرتفع من داخل الموقد.

وقال هيروشي:

– يا أماه! .. واضطجع على الحصيرة.

– ماذا؟

–   ماذا تعني كلمة "أوميكو" أن شخصاً قال أن هذا ما فعله شنجي مع هاتسو؟! فماذا يعني هذا؟

وقبل أن يدرك هيروشي، تركت أمه الموقد، وكانت إلى جانبه، وكانت عيناها ترسلان وميضاً غريباً.

– هيروشي!؟ أين سمعت هذا الكلام؟ من قال ذلك؟

– سوتشان؟

– لا تقل هذه الكلمة مرة أخرى! حتى ولا إلى أخيك، فإذا فعلت فستمر أيام قبل أن أقدم لك ما تأكله؟ هل سمعت!؟

وكانت الأم تنظر نظرة تسامح لشئون الحب عند الشبان، وحتى إبان موسم الغوص، وعندما كان الجميع يجلسون لتجفيف ملابسهم

يثرثرون كانت تمسك لسانها عن الكلام، ولكن عندما تعلق الأمر بابنها قامت بواجبها كأم.

ففي تلك الليلة وبعد أن نام هيروشي مالت الأم على أذن شنجي وقالت بصوت منخفض.

– هل تعلم أن الناس ينشرون قصصاً سيئة عنك وعن هاتسو؟

فهز شنجي رأسه واحمر وجهه وتضايقت أمه، ولكنها تشددت في القول بصراحة وقالت:

– هل نمت معها؟

فهز شنجي رأسه نافياً

– إذن فأنت لم تفعل شيئاً يمكن للناس أن يتحدثوا عنه؟ هل أخبرتني بالحقيقة؟

– نعم لقد أخبرتك بالحقيقة.

– حسناً ليس ثمة ما أقوله، ولكن احترس، فالناس يهتمون بشئون الآخرين.

غير أن الموقف ساء، ففي مساء اليوم التالي، ذهبت أم شنجي إلى اجتماع لجمعية الإله آب وهو النادي الوحيد للنساء، وعندما ظهرت توقف الجميع عن الكلام وبدا كما لو أن شيئاً مبللاً قد ألقي عليهم، ولا شك أنهم كانوا يثرثرون.

وفي مساء اليوم التالي ذهب شنجي إلى رابطة الشبان، وفتح الباب كالعادة فوجد جماعة من الشبان يجتمعون حول مقعد، ويبحثون شيئاً في منأى عن المصباح الكهربائي، وعندما رأوا شنجي لزموا الصمت لحظة، ولم يسمع سوى صوت البحر في الغرفة التي ليس فيها أي دليل على الحياة.

وكالعادة جلس شنجي بجوار الجدار، ولف يديه على ركبتيه، ولم يقل أي كلمة، وراح الجميع يتكلمون عن مواضيع مختلفة، وحيا ياسو _الذي حضر مبكراً على غير العادة_ شنجي بطريقة حارة، فرد هذا التحية بابتسامة بريئة. وبعد أيام وعندما كانوا يتناولون طعام الغداء في الزورق ويستريحون من الصيد قال ريوجي:

أيها الأخ شن، أن هذا يجعل دمي يغلي، أن ياسو يقول أشياء سيئة عنك.

– فقال شنجي مبتسماً وصامتاً.

– هل يفعل ذلك؟

وكان الزورق يسير برفق على أمواج الربيع، وفجأة قال جوكيتشي "وهو دائماً رقيق":

– أنا أعرف أن ياسو غيور، أنه ليس إلا أحمق، يتدخل بسبب أبيه، أنه يوغر صدري، لقد أصبح شنجي شاباً تتهافت عليه السيدات، لهذا يشعر ياسو بالغيرة، شيء ، لاتهتم لما يقولون يا شنجي! إذا حدث فأنا إلى جانبك!

وهكذا انتشرت الشائعة التي أطلقها تشيوكو وأذاعها "ياسو" وأصبحت موضوع الكلام في الطرقات ولكنها لم تصل إلى أذن والد هاتسو.

وفي ذات أمسية وقع حادث في القرية لم تسكت القرية عن تناوله لبضعة أشهر وحدث هذا الحادث في الحمام العام.

والمعروف أن البيوت الكبيرة ليس فيها حمام، وفي تلك الليلة ذهب تيروكتيش مياتا إلى الحمام كالعادة، ودخل من باب الحمام، وخلع ملابسه وألقاها نحو الصندوق الخاص بها، فأخطأته، وتبعثرت ملابسه على الأرض فلعق لسانه بصوت عال ثم جمعها ووضعها في السلة، وكان مشهداً غريباً للذين شاهدوه، وكانت هذه إحدى المناسبات التي بقيت أمام أبى هاتسو لكي يبرهن رغم تقدمه في السن أنه ما زال شديداً قوياً.

وكان جسده العاري المسن رائعاً، فأن أطرافه كانت قوية، وكان أشبه بالأسد، وصدره أحمر اللون نتيجة شرب الخمر طيلة سنوات، وقد تصلبت عضلاته من قلة استخدامه لها.

ومن المستحسن أن نقول أن تيروكتيش كان صورة مجسمة للكد والتصميم والطموح والقوة في الجزيرة، فقد كان مليئاً بقوة الرجل الذي رفع أسرته من لا شيء إلى الثروة في جيل واحد، وكان ضيق الأفق بحيث لم يقبل أي منصب عام في القرية، مما جعله أكثر احتراماً من جانب شيوخ القرية.

وكانت دقة تنبؤاته الجوية وخبرته التي لا نظير لها في شئون الصيد والملاحة، وفخره بمعرفته لتاريخ وتقاليد القرية .. توازن بعناده الشديد، وتظاهره المضحك وحبه للمشاكسة الذي لم يخف مع السنين، وعلى أية

حال كان عجوزاً يستطيع وهو على قيد الحياة أن يكون تمثالاً برونزياً يحيى ذكراه دون أن يبدو مثيراً للضحك.

واجتاز الباب المؤدي من غرفة الملابس إلى الحمام، وكان الحمام مزدحماً وبدت من خلال سحب البخار أشكال الناس وهم يتحركون، وكان السقف يدوي بصوت الماء، والأحواض الخشبية والضحك.

وكان تيروكتيش لا يضع الماء على جسده قبل أن ينزل إلى الحوض، وراح يسير متبختراً من الباب إلى الحوض، ثم وضع رجليه في الماء، وكان لا يبالي بسخونة الماء، وأثر الحرارة على قلبه وأوعيته الدموية، وحتى عندما تناثر رذاذ الماء على وجوه الحاضرين، فأنهم حيوه عندما أدركوا أنه هو القادم.

وإلى جانب الحوض كان اثنان من الصيادين الشبان يغسلان جسديهما، ولم يلحظا وصول تيروكتيش، وراح الاثنان يتحدثان عنه.

– أن العم تيرومياتا لابد أنه انحدر إلى طفولته مرة أخرى! لم يعلم بأن ابنته أصبحت ساقطة!

– ذلك المدعو شنجي كوبو؟ في الوقت الذي ظل الجميع يعتقدون أنه ولد طيب ذهب واختطفها أمام سمع و بصر أبيها.

وكان الناس في الحوض يثرثرون ولا ينظرون إلى تيروكتيش.

وغلا مرجل غضب الأب، ولكن وجهه ظل هادئاً عندما خرج من الحوض، فأخذ حوضاً خشبياً بيده، وملأه بالماء البار ، ثم توجه إلى الشابين، وصب الماء على رأسيهما بدون إنذار ورفسهما في ظهورهما .. وكانت عيون الشابين مغلقة بالصابون فراحا يضربان، ولكنهما أدركا أن تيروكتيش هو الذي أمامهما فتراجعا .. وأمسكهما من رقبتيهما وسحبهما إلى حافة الحوض وراح يغمس رأسيهما في الماء الساخن ثم ضربهما معاً، وبدون أن يغسل تيروكتيش جسده خرج من الغرفة بخطواته الواسعة ولم يلق بالاً إلى الآخرين الذين وقفوا ينظرون والدهشة تعقد ألسنتهم.

الفصل الحادي عشر

وعندما كان عمال الزورق "تايهي مارو" في اليوم التالي يتناولون طعام الغداء فتح الربان صندوق التبغ وأخرج قطعة ورق صغيرة وتجهم وجهه، ثم قدمها إلى شنجي، ولكن قبل أن يلمسها هذا قال جوكتيش:

– اسمع إذا أعطيتك هذه الورقة فهل تعدني بألا تغضب عندما تقرأها؟

فقال شنجي:

– لست ذلك النوع من الناس.

– حسناً أنه وعد رجل، في صباح اليوم وأنا أجتاز منزل العم تيرو جاءت هاتسو، وأعطتني هذه الورقة، ولم تقل شيئاً ثم دخلت، وما كنت أتلقى رسالة حب وأنا في هذه السن ولكني عندما فتحتها ووجدتها باسمك .. قلت لنفسي أيها العجوز الأحمق .. وكنت على وشك تمزيقها وإلقائها في المحيط ثم قلت لنفسي يا للعار وأحضرتها لك.

فأخذ شنجي الرسالة والقبطان وريوجي يضحكان، وفتحها شنجي وحرص على ألا يمزقها بأصابعه الخشنة، وكانت الفتاة قد بدأت الكتابة بالحبر ثم نفد الحبر فكتبت بقلم رصاص وجاء فيها: بالأمس سمع أبي في

الحمام ثرثرة مشينة عنا واستشاط غضباً وأمر بألا أراك ثانية، وبغض النظر عما أوضحته لك، فلم يجد ذلك حتى مع أبي وهو من ذلك الطراز من الناس، ومنعني من مغادرة المنزل ابتداء من موعد عودة زوارق الصيد حتى خروجها في الصباح، ويقول أنه سيجعل السيدة التي تسكن بجوارنا تحضر لنا الماء حين يحين دورنا، لذا لا يوجد ما أستطيع القيام به، أنني تعسة، ولا أحتمل ذلك، ويقول أنه في اليوم الذي لن تخرج فيه زوارق للصيد سيكون معي لكيلا أبتعد عن عينيه.

كيف أرى شنجي مرة أخرى؟ أرجوك أن تفكر في وسيلة لكي نلتقي؟ أخشى علينا من إرسال رسائل بالبريد لأن رجل البريد العجوز سيطلع على الأمر، لذا سأكتب إليك رسالة كل يوم وسأضعها لك تحت غطاء وعاء الماء في مطبخنا، أرجوك أن تضع ردودك في المكان نفسه، ولكن من الخطر أن تحضر بنفسك لأخذ الرسائل، لهذا كلف أحد الأصدقاء الذين تثق فيهم بأن يفعل، أنني لم أحضر إلى القرية، إلا من وقت قصير ولا يوجد من أثق به!

أوه يا شنجي! لنستمر بصدق، وبقلوب قوية، سأصلي كل يوم أمام صورة والدي وصورة أمي راجية ألا يصيب شنجي مكروه، أنني على يقين من أن السماء تدرك ما أشعر به.

وأثناء قراءة شنجي للرسالة تغيرت ملامحه، مثل نور الشمس والظل بين الحزن من ابتعاده عن هاتسو وفرحه بهذا الدليل على حبها له ..

وعندما انتهى من الرسالة خطفها "جوكتيش" كما لو أن هذا من حقه باعتباره حامل رسائل الحب، وقرأها، وقد قرأها بصوت عال لكي يسمع ريوجي، وقرأها بطريقته التي هي أشبه بالترتيل، وكان شنجي يعم أن جوكتيش يقرأ الصحيفة دائماً بهذه الطريقة دون غرض ما، ولكنه حزن من قراءتها بهذه الطريقة الهزيلة وهي من الفتاة التي يحبها.

وتأثر جوكتيش بالرسالة إلى حد كبير، وإبان قراءته لها كان يتنهد، وعندما انتهى منها أعرب عن رأيه بصوت قوي وقال:

– النساء حكيمات فعلاً! أليس كذلك؟

وفي هذا الزورق لم يكن يسمعه أحد سوى هذين الاثنين اللذين يثق فيهما، لهذا أسر لهما شنجي بقصته تحت إلحاح جيوكتيش، وروى لهما أنه في ذلك اليوم العاصف وحتى عندما كانا عاريين وفي أحضان بعضهما لم ينل بغيته..

وراح الربان يضحك عالياً رغم أنه لا يبتسم إلا لماماً.

– آه لو حدث ذلك معاً، ما هذه الزوبعة التي أثرتها، ولكني أعتقد أن هذا نتيجة عدم خبرتك بالنساء كما أن الفتاة حكيمة، ولكن القصة مضحكة، أن الأمر سيكون على ما يرام عندما تصبح زوجتك وبعد ذلك تنال ما تشتهي.

وكان ريوجي وهو يصغر شنجي بعام ينصت إلى هذا الحديث دون أن يفهم سوى بعض منه، وأما بالنسبة لشنجي فلم يكن حساساً يتأثر بسرعة مثل الشاب الذي ينشأ في المدينة، عند أول حب له، لذا فإن رأي العجوز بعث الارتياح في نفسه وليس العكس كما أن الأمواج التي تتقاذف الزورق بعثت الهدوء في قلبه، وبعد أن روى القصة كلها شعر بهدوء نفسه، وأصبح مكان الكد والعناء هذا مبعثاً للراحة.

وتطوع ريوجي الذي يمر بمنزل تيروكتيش في طريقه إلى الشاطئ لإحضار رسالة هاتسو من أسفل الماء كل صباح..

وقال جوكتيش:

– ابتداء من الغد ستصبح رجل البريد.

وأصبحت الرسائل اليومية هي الموضوع الرئيسي للحديث أثناء الغداء في الزورق، وكان الثلاثة يتشاركون في الحزن والغضب الذي

يسببه مضمون الرسائل، فقد أثارت الرسالة الثانية سخطهم فقد وضحت فيها هاتسو كيف هاجمها ياسو في منتصف الليل والتهديدات التي وجهها لها. وقد حفظت السر ولم ترو القصة، ولكن ياسو انتقم لنفسه بنشر تلك القصة الكاذبة عنها وعن شنجي، وعندما منعها أبوها من رؤية شنجي مرة أخرى أوضحت له كل شيء بصدق، وأخبرته بسلوك ياسو الشائن، إلا أن أباه لم يفعل شيئاً بالنسبة لياسو بل ظل صديقاً لأسرته مع

تبادل الزيارات، بيد أنها كرهت منظر وجه ياسو، واختتمت الرسالة بأنها لن تتخلى عن حذرها إزاء ياسو..

واحتد ريوجي نيابة عن شنجي الذي كسا وجهه تعبير من الغضب، وقال شنجي:

– هذا كله لأنني فقير.

ولم يكن يسمح لمثل هذه الكلمات التي تدل على التذمر، بأن تخرج من شفتيه، وذرف دموع الخجل، ليس لأنه فقير، ولكن لأنه ضعيف لا يستطيع أن يرفع صوته بهذه الشكوى. ثم صلب وجهه، وتجنب أن يجعل الآخرين يرون دموعه. ولم يضحك جوكتيش هذه المرة، وكان هذا مغرماً بالتبغ، يدخن الغليون تارة واللفائف تارة أخرى، وكان اليوم موعد اللفائف، وابتعد جيوكتيش بنظره عن الشابين، ونظر إلى خليج أيزي، وكان وجهه أشبه بالجلد فقد أحرقته الشمس حتى وصلت إلى قاع التجاعيد به، وكانت عيناه حادتين، ومليئتين بالحياة، ولكنهما فقدتا نضرة الشباب، ومع هذا كانتا تستطيعان مواجهة أي ضوء مهما كان قوياً. ونظراً لخبرته وتقدمه في السن كان يعرف كيف ينتظر في صمت ثم قال:

– أعرف ما تفكران فيه، تريدان أن تضربا ياسو، ولكن اسمعا لي .. ليس هذا بعمل حسن، الأحمق أحمق، اتركاه وشأنه، أعلم أن هذا قاسي على شنجي ولكن الصبر هو الأساس ستسير الأمور على ما يرام، من

الآن سينتصر الحق، أن العم تيرو ليس أحمقاً، ولا تقولا أنه لا يستطيع تمييز الغث من السمين، أتركا ياسو وشأنه، سينتصر الحق في النهاية!

ومع أن الوقت كان متأخراً إلا أن ثرثرة القرية وصلت إلى الفنار مع الوسائل والطعام، ووصلت أنباء أن تيروكتيش منع هاتسو من رؤية شنجي، فأدى هذا إلى شعور تشيوكو بالذنب.

وواجهت نفسها بفكرة أن شنجي لم يعلم بأنها مصدر هذه الثرثرة الكاذبة، وحتى مع هذا لم تكن تستطيع أن تنظر إلى عيني شنجي عندما جاء يوماً ومعه سمكة وكانت معنوياته في حالة يائسة، ومن ناحية أخرى فإن أبويها اللذين لا يعرفان السبب كانا قلقين من كآبة تشيوكو..

واقترب موعد نهاية أجازة الربيع عند تشيوكو، وحل اليوم الذي كانت ستعود فيه إلى طوكيو، ولم تستطع أن تعترف بما فعلته، وكانت تشعر أنها لا تستطيع أن تعود الي طوكيو حتى تطلب من شنجي أن يصفح عنها، فإذا لم تعترف بجرمها فلن يكون ثمة من سبب لكي يغضب شنجي منها، ومع هذا فقد أرادته أن يغفر لها..

ودعيت لقضاء المساء قبيل رحيلها إلى طوكيو في منزل مدير البريد في القرية، وقبل فجر صباح اليوم التالي خرجت وحدها..

وكان الشاطئ يعج بالاستعدادات ليوم الصيد، وكل ملتفت إلى عمله في ضوء النجوم والزوارق على الألواح، ويدفعها الرجال بأصوات

مرتفعة إلى حافة الماء، ولم يكن ثمة شيء يمكن رؤيته سوى المناشف البيضاء والملابس المبللة بالعرق التي ربطها الرجال فوق رءوسهم. وراحت تشيوكو تسير فوق الرمال خطوة خطوة، وكان الجميع منهمكين في أعمالهم لا ينظرون إليها، وأدركت بشيء من الخجل أن هؤلاء الناس يعملون بجد في كسب قوتهم اليومي، تحت حرارة الشمس اللافحة، وليس بينهم من يستطيع أن يهتم بمسائل عاطفية مثل مشاكلها.

ومع ذلك راحت تبحث عن شنجي، وكان الجميع يرتدون ملابس متشابهة، لذا كان من العسير تمييز وجوههم في هذا الوقت من الفجر ..

وفي النهاية نزل زورق إلى الماء، وانطلق كما لو أنه أفلت من عقاله، وتحركت نحوه تشيكو، ونادت على شاب قد لف رداء أبيض اللون على رأسه، وكان الشاب على وشك أن يقفز إلى الزورق لكنه توقف والتفت نحوها، وعنهما ضحك برزت أسنانه البيضاء الجميلة وعرفت وعرفت فيه تشيوكو شنجي..

فقالت له:

– أنا مسافرة اليوم وأريد أن أودعك

– أوه! هل ستسافرين؟

– ثم بصوت غير طبيعي قال:

– حسناً .. وداعاً!.

وكان شنجي على عجلة من أمره، وأدركت الفتاة أنه أكثر عجلة مما هو في الواقع، فلم تستطع الكلام أو الاعتراف، فأغلقت عينيها وطلبت أن يمكث شنجي أمامها ثانية أخرى، وفي هذه اللحظة أدركت أن رغبتها في الصفح عنه لم تكن سوى قناع لإخفاء رغبتها في أن يكون لطيفاً معها..

وما الذي تريده أن يغفره لها وهي الفتاة المقتنعة بدماثتها: وبدون تفكير سألت سؤالاً كانت تخفيه في أعماقها، وما كانت تجرؤ على توجيهه إلا لهذا الشاب:

– شنجي هل أنا دميمة؟

فقال والدهشة ترتسم على أساريره:

– ماذا؟

– هل وجهي دميم؟

وتمنت الفتاة أن يحمي ظلام الفجر وجهها، ويجعلها تبدو على قسط من الجمال لكن البحر في الشرق، ألم يجعل الجو يبدو مضيئاً؟

وكان جواب شنجي سريعاً، وتجنب موقفاً لا يستطيع أن يجيب فيه على سؤال يقطع نياط قلب الفتاة، كما أنه كان في عجلة من أمره، وقال

وهو على وشك الصعود إلى الزورق: ما الذي يجعلك تقولين ذلك؟ أنت لطيفة أنت لطيفة.

وكما يعلم الجميع كان شنجي لا يعرف التملق والمداهنة، وأما الآن فقد كان على عجل من أمره. لذا رأى أنه لابد من الإجابة على هذا السؤال العاجل.

وبدأ الزورق في التحرك فلوح بيده للفتاة، وهو ينطلق إلى

البحر وشعرت الفتاة بالسعادة.

وفي ذلك الصباح نزل أبواها من الفنار لوداعها، وهي عندما كانت تتحدث معهما كان وجهها مليئاً بالحيوية، ودهشا لرؤية سعادة ابنتهما وهي عائدة إلى طوكيو.

وابتعدت المعدية عن الشاطئ وظلت تشيوكو وحدها فوق سطح الزورق وأثناء ذلك بلغ شعورها بالسعادة أكمله.

وراحت تردد قائلة:

–لقد قال أنني لطيفة! قال أنني لطيفة، وأعادت العبارة مئات المرات منذ تلك اللحظة! هذا حقاً ما قاله! وهذا يكفيني، لا ينبغي أن أتوقع أكثر من هذا، هذا ما قاله لي فعلاً، أيجب أن أرضى بهذا ولا أتوقع منه أن يحبني أيضاً، فهناك من يحبه؟.

يالشناعة ذلك العمل الذي قمت به نحوه!! ياللشقاء الفظيع

الذي سببته له غيرتي؟ ومع ذلك رد على ضيفي بأن قال أنني لطيفة، يجب أن أعالج ما صنعته به. ينبغي أن أفعل ما بوسعي لاستعيد لطفه نحوي..

وقطع عليها حبل تأملاتها صوت غريب يجيء عبر الأمواج وعندما نظرت شاهدت أسطولاً من الزوارق عليها أعلام حمراء تبحر من ممر أيراكو..

فسألت تشيوكو مساعد القبطان:

– ما هؤلاء؟

فقال:

هذه زوارق حجاج متجهة إلى معابد أيزي، أن الصيادين من المناطق المجاورة لانشو ويايزو قرب خارج "سوروجا" يحضرون عائلاتهم ويذهبون إلى طوبا، وهذه الرايات الحمراء تحمل أسماء الزوارق، أنهم يغنون ويشربون ويقامرون طيلة الطريق..

واقتربت الأعلام الحمراء، وارتفع صوت الغناء..

ثم رددت تشيوكو لنفسها:

لقد قال أنني لطيفة.!

الفصل الثاني عشر

واقترب الربيع من نهايته، وكان من السابق لأوانه أن تتفتح الزهور على الفرح في الجهة الشرقية من الجزيرة، ولكن الحقول كانت مليئة بالزهور ذات الألوان الرائعة، وعاد الأطفال إلى المدرسة مرة أخرى، وراحت النساء يغصن في البحر بحثاً عن الصدف، ونتيجة لهذا ازداد عدد المنازل التي تخلو من سكانها إبان النهار، فالأبواب مفتوحة، والنوافذ غير مغلقة.

ولم يستطع "شنجي" أن يكتشف طريقة يصل بها إلى هاتسو وعلى الرغم من أن اجتماعاتهم السابقة كانت قليلة ومتباعدة، إلا أن انتظار لقائهم المقبل جعل الانتظار محتملاً، وأما الآن فلا يوجد لقاء، لهذا كان شوقه أشد وأقوى. ولكن الوعد الذي قطعه لجيوكتيش بعدم التكاسل جعل من المستحيل أن ينقطع يوماً عن العمل، لهذا لم يكن أمامه من عمل في كل ليلة بعد عودته من الصيد إلا الانتظار حتى ينقطع المارة من الشارع، ثم يزحف إلى الأماكن المجاورة لمنزل هاتسو.

وأحياناً كانت النافذة العليا تفتح وتطل منها هاتسو، وماعدا المناسبة السعيدة التي يظهر فيها القمر فقد كان وجهها يختفي في الظلال، ومع ذلك فقد كانت مدة بصر الغلام تمكنه من أن يرى وجهها

والدموع في مآقيها، ولم تنطق هاتسو أبداً خوفاً من الجيران، وكان شنجي يقف خلف جدار حجري وراء المنزل ينظر إلى وجهها ولا ينبس بكلمة، وكانت الرسالة التي سيحضرها ريوجي في اليوم التالي ترتكز على الأسى التي تشعر به، وهذا اللقاء العابر، وأثناء قراءة شنجي للرسالة كانت تتراءى أمامه صورتها، وكذلك الفتاة الصامتة التي يراها في الليل كانت مليئة بالحيوية والحركة..

وكانت هذه اللقاءات تحز في نفس شنجي أيضاً، وفي بعض الأحيان كان يفضل أن يخفف من عواطفه بزيارة تلك المناطق في الجزيرة حيث لا يذهب الناس، وكان أحياناً يذهب إلى مدفن الأمير "ويكي"..

وكانت أسطورة الأمير "ويكي" غامضة، ولا يعرف شيء عن مصر اسمه الغريب وفي أثناء الاحتفال الذي يقام إبان السنة القمرية الجديدة، كان الصندوق الغريب الذي يرقد في المعبد يفتح قليلاً كل عام ويسمع لاثنين ممن تجاوزوا السنين من العمر بأن يلقوا نظرة خاطفة على محتوياته، ولكن لا أحد يعلم الصلة بين هذا الكنز الغامض وبين الأمير "ويكي" ، وإلى وقت مضى كان الأطفال يطلقون على أمهاتهم اسم "أيا" وذلك لأن الأمير أطلق على زوجته اسم "هيا" أي غرفة، وأن وريثه أساء نطقها فقال "أيا" وهو يحاول تقليد أبيه..

ومهما يكن، تسير القصية وتقول أن الأمير جاء من أرض معبدة إلى هذه الجزيرة، وتزوج فتاة من أهلها، وعندما ماتت دفنت فوق رابية ملكية،

ولم يذكر شيء عن حياة الأمير، ولم تنشر روايات مؤلمة عن هذا الشخص الأسطوري، ولنفرض أن الأسطورة تستند إلى حقيقة، فإذا هذا الصمت يوحي أن حياة الأمير فوق الجزيرة لابد وأنها كانت سعيدة غير حافلة، بحيث لم تترك مجالاً لقصص ملفقة.

وربما كان الأمير "ويكي" شخصية سماوية نزل إلى أرض لا أسم لها، وربما عاش سنوات على الأرض دون أن يعرفه أحد، وفعل ما فعل، ولم يبتعد أبداً عن السعادة ولا عن بركة السماء.

وربما كان هذا هو السبب الذي جعل أشلاءه توضع في مكان يطل على الشاطئ الذي طوله خمسة فراسخ، وجزيرة "هاتشيجو" وبهذا لم يترك وراءه أي قصص..

ولكن الغلام لم يعرف سوى الشقاء وهو يتجول حول المعبد إلى أن أنهكت قواه، فجلس شارد الذهن على العشب، وراح يحدق في البحر الذي تسقط أشعة القمر على صفحته، وكانت هناك سحب حول القمر تنذر بهطول أمطار في الغد.

وفي اليوم التالي عندما وقف ريوجي أمام منزل هاتسو ليحمل الرسالة اليومية وجدها بارزة قليلاً من أسفل الغطاء الخشبي لوعاء الماء، ومغطاة بوعاء معدني لئلا يبللها المطر.

واستمر هطول الأمطار طيلة يوم الصيد، إلا أن شنجي استطاع أن يقرأ الرسالة إبان راحة الظهر، وقد وضع معطفه الواقي من المطر عليها لحمايتها.

وكان من العسير قراءة خطها، وقالت أنها تكتب وهي في الفراش في الصباح الباكر، تكتب في الظلام لتجنب أثارة شكوك أبيها لو أضاءت المصباح، وكانت في العادة تكتب الرسائل في لحظات قاسية إبان النهار، وتضعها في المكان المعتاد قبل خروج الزوارق للصيد في الصباح، ثم قالت ولكنها في صبيحة ذلك اليوم كان لديها ما تخبره به فوراً، لذا مزقت الرسالة المطولة التي كتبتها أمس، وكتبت هذه بدلاً منها.

وقالت رسالة هاتسو: "أنها حلمت حلماً حلواً، ففي الحلم أخبرها الإله أن شنجي يمثل الأمير "ويكي"، ثم تزوجا في جو من السعادة وأنجبا ولداً مثل الجوهرة. وكان شجي يعلم أن الفتاة لا تعلم شيئاً عن زيارته لضريح الأمير ويكي في ليلة الأمس، لهذا تأثر بهذا الحدث، وقرر أن يكتب لهاتسو بالتفصيل عندما يعود إلى المنزل في تلك الليلة، ويخبرها بذلك البرهان الساطع لمعنى حلمها.

ولما كان شنجي يعمل لإعالة أسرته، لهذا لم يكن هناك ما يدعو أمه أن تعمل والماء بارد، لذا قررت أن تنتظر حتى يونيو التي تعاود الغوص، ولكنها كانت عاملة مجدة، والآن أصبح الطقس دافئاً، فشعرت بالاستياء،

وليس أمامها ما تفعله سوى عمل المنزل، وعندما كانت تجد نفسها من غير عمل كانت تراودها الهواجس.

فقد كانت تفكر دائماً في شقاء ابنها، وأصبح شنجي يختلف عما كان عليه قبل ثلاثة أشهر فهو قليل الكلام كالعادة ولكن مرح الشباب الذي كان يضيء وجهه وهو صامت قد اختفى.

وفي ذات يوم أنهت عملها في الصباح وبقي أمامها فترة كئيبة بعد الظهر، فراحت تتساءل عما إذا كان هناك ما تفعله لتخفيف شقاء ابنها، ولم يكن منزلها مشمساً ولكن فوق سطح المنزل المجاور كانت تستطيع رؤية السماء الهادئة والربيع، لهذا قررت أن تذهب وغادرت المنزل.

وذهبت مباشرة إلى حاجز الماء وشاهدت الأمواج وهي تتلاطم وتتلاشى، وهي كأبنها ذهبت لتشاور البحر إذا كان هناك ما يشغل بالها ..

وكان حاجز الماء مغطى بحبال أواني صيد الإخطبوط، وكان الشاطئ خالياً من الزوارق، لكن الشباك منتشرة لكي تجف..

وشاهدت الأم فراشة وحيدة تطير من الشباك نحو الحاجز، وكانت فراشة جميلة، وربما كانت تبحث عن زهور جديدة مختلفة بين رمال الصيد، إذ أن منازل الصيد لا حدائق فيها، لهذا جاءت الفراشة إلى الشاطئ هرباً من زهور بيوت الصيادين..

وكانت الأمواج وراء الحاجز، وتكشف عن قاع البحر، وكان الماء موحلاً ورأت الأم الفراشة تنتقل من الحاجز إلى سطح الماء الموحل، وبدا كما لو أنها أراحت أجنحتها لحظة، ثم حلقت في الجو مرة أخرى..

فقالت لنفسها؟

– أنها فراشة غريبة، أنها تقلد النورس.

وانصب اهتمامها إلى الفراشة، وكانت هذه تحاول أن تبتعد عن الجزيرة وتذهب لاستنشاق نسيم البحر، وكان النسيم يقاوم أجنحة الفراشة، إلا أنها ابتعدت عن الجزيرة، وظلت الأم تحدق فيها حتى أصبحت بقعة سوداء في السماء.

وظلت الفراشة محلقة في السماء، ثم عادت إلى الحاجز، لأنها رأت أن الجزيرة الأخرى بعيدة، وأضافت الفراشة ظل عقدة أخرى إلى عقدة كبيرة لأحد الجبال، ولم تكن الأم تصدق العلامات والخرافات ومع ذلك كان عمل الفراشة العقيم قد ألقى ظلاً على قلبها.

فقالت:

– يا للفراشة الحمقاء! إذا أرادت أن تذهب بعيداً، فعليها أن تركب المعدية وتذهب!

ومع هذا فالأم رغم أنه لا عمل لها في العالم خارج الجزيرة،لم تركب المعدية منذ سنوات..

وفي هذه اللحظة ولسبب ما شعرت في نفسها بشجاعة مغامرة، فابتعدت بسرعة عن الحاجز المائي، وحيتها إحدى الغواصات، ودهشت لأنها رأت أم شنجي تسير بثبات وهي في حالة تفكير عميق، ولم ترد التحية..

وكان تيروكتيش مياتا من أغنى الناس في القرية، وكان منزله أفضل من منازل القرية، وغير هذا لا يمكن أن يقال أن وقف منزله أعلى من بقية المنازل، فلم يكن للمنزل بوابة خارجية ولا جدار حجري وكان لا يختلف من حيث ترتيبه عن بقية المنازل، وقد شيد المنزل فوق منحدر، لذا كان يتمتع بحالة استقرار وهدوء.

والي جانب باب المطبخ يوجد وعاء ماء كبير، وكان غطاؤه الخشبي الذي تضع هاتسو الرسائل تحته يوحي بأنه يحمي الماء من الغبار، ولكنه في الصيف لا يحمي الوعاء من البعوض والحشرات الأخرى.

وترددت أم شنجي لحظة وهى تريد دخول المنزل، وأن مجرد حضورها إلى منزل مياتا حيث لا صلة ود بينهما من سيجعل الألسنة تنطلق في القرية، فنظرت حولها، ولم يكن ثمة أحد.

فوضعت الأم يدها على شعرها فوجدته منكوشاً من نسيم البحر، فأخرجت من صدرها مشطاً صغيراً مكسوراً، وسرحت به شعرها. وكانت ترتدي ملابس عملها اليومي، وأسفل وجهها كان صدرها الذي لفحته الشمس، وترتدي معطفاً مفتوحاً، وصندلاً في قدميها العاريتين.

وكانت أصابع أقدامها قد تصلبت من الجروح والكدمات أثناء الغوص ولا يمكن أن توصف قدماها بأنها جميلتان، ولكنها على الأرض كانتا ثابتتين وصامدتين.

وفتحت الباب، ودخلت غرفة المعيشة، وكان الصمت يخيم على المنزل، والغرف مفتوحة، وأرض المنزل مظلمة؛ إلا أن شعاع الشمس كان يتسرب إلى المنزل من نافذة في مؤخرة البيت فأضاءت، فقالت الأم:

– طاب يومكم.

ثم انتظرت قليلاً فلن تسمع جواباً ثم قالتها مرة أخرى:

فأقبلت هاتسو من السلم الخشبي في جانب الغرفة.

وقالت:

– أوه عمتاه؟

وكانت ترتدي ملابس المنزل وشعرها مصفف وعليه شريط أصفر.

فقالت الأم:

– أنه شريط جميل.

وراحت وهي تتكلم تتفحص الفتاة التي يحبها أبنها.

وربما كان خيالها هو الذي صور لها ذلك، فأن وجه الفتاة كان هزيلاً وشاحباً، وظهر ذلك بوضوح لأن. عينيها سوداوان، وأدركت الفتاة أن الأم تمعن النظر فيها فأحمر وجهها خجلاً..

وكانت الأم شجاعة، فهي ستقابل "تيروكتيش" وتعلن براءة أبنها، وتفتح قلبها، وتجمع بين الاثنين برباط الزواج، والحل الوحيد أن يناقش الأبوان الأم وجهاً لوجه.

– هل أبوك في المنزل؟

– نعم.

– أريد أن أتحدث إليه، هلا أخبرتك بذلك؟

– لحظة من فضلك.

وصعدن هاتسو السلم وعلى وجهها تدمير قلق، وجلست الأم فوق مقعد قرب درج يؤدي إلى الغرفة الأرضية للمنزل.

وانتظرت الأم طويلاً، وتمنت لو أحضرت معها لفائف، تبغ، وأثناء انتظارها تضاءلت شجاعتها، ولكنها بدأت تدرك الحماقة التي قادها إليها خيالها، وبدأ السلم يهتز قليلاً، وهاتسو تهبط، ولكنها لم تهبط كل السلم، فقد مالت من منتصفه وقالت:

– أن أبي لن يقابلك.

– لن يقابلني؟!

– نعم ولكن..

وبهذا الجواب تلاشت شجاعة الأم، وأدى شعورها بالإذلال إلى نوبة حزن .. وتذكرت في طرفة عين حياتها في الكرب والعناء، والمتاعب التي واجهتها وهي أرملة، وقالت: بصوت أشبه بما لو أنها تبصق في وجه أحدهم وهي في منتصف الطريق إلى الخارج:

–حسناً أنت تقولين أنكم لن تروا أرملة فقيرة، هل تعني أنكم لا تريدونني أن أعبر عتبة الباب مرة أخرى؟ حسناً! دعيني أقول لك شيئاً، ولا تبك، اسمعي، قولي له أولاً، أنني لن أعبر هذه القبة اللعينة طيلة حياتي.

ولم تستطع الأم أن تخبر ابنها بهذا الفشل الذي منيت به جهودها؛ وراحت تبحث عن كبش فداء، فهذا لم تجد سوى هاتسو كي تصب عليه جام غضبها، وبدلاً من أن تساعد ولدها تشاجرت معه.

ولم تخاطب الأم ولدها يوماً بطوله، وفي اليوم التالي تصالحا، وانتاب الأم شعور بالوطن على ولدها، فأخبرته بزيارتها الفاشلة إلى تيروكتيش، وكان شنجي قد علم بالأمر من رسالة هاتسو.

ولم تذكر الأم في اعترافها ذلك المشهد الأخير الفاضح، كما أن رسالة هاتسو حذفت هذا المشهد حرصاً على شعور شنجي، لهذا لم يكن في ذهن شنجي سوى فكرة الإذلال الذي تعرضت له والدته، أمام منزل تيروكتيش، وقال الغلام الرقيق القلب أنه حتى وأن كان لا يقر الأم على ما تقوله عن هاتسو، إلا أنه لا يستطيع أن يلومها بسبب ذلك، وحتى هذه اللحظة لم يحاول أن يخفي حبه لهاتسو عن أمه، ولكنه قرر منذ الآن فصاعداً ألا يثق إلا بالقبطان وريوجي، وكان هذا بسبب حبه لأمه.

وهكذا أصبحت الأم وحيدة أكثر من ذي قبل، لأنها حاولت أن تفعل شيئاً وفشلت..

ولحسن الحظ لم تكن هناك راحة من الصيد، ولو ليوم واحد، إذ لو حدث ذلك لزاد ألمه، لأنه لا يستطيع أن يقابل هاتسو، وجاء شهر مايو، وكانت لقاءاتهما محظورة، وفي ذات يوم حمل له ريوجي رسالة جعلته يطير من الفرح.

"في مساء الغد سيستقبل والدي بعض الزائرين وهم مسئولون من "تسو" وسيقضون الليل في المنزل، وحيثما كان لدى والدي زائرون فهو

يشرب كثيراً ويأوي إلى فراشه مبكراً، لهذا أعتقد أنه من المأمون أن أخرج من المنزل في الحادية عشرة، أرجوك أن تنتظرني أمام معبد ياشيرو".

وعندما عاد شنجي من الصيد في ذلك اليوم ارتدى قميصاً جديداً، فجلست أمه تنظر إليه بعصبية لأنه لم يوضح لها الأمر، وشعرت أنها تنظر إلى ابنها في نفس اليوم الذي هبت فيه العاصفة..

وقد تعلم شنجي حتى الآن آلام الانتظار، لهذا قرر أنه من الأفضل أن يجعل الفتاة هي التي تنتظر، ولكنه لم يستطع ذلك، إذ حالما آوت أمه وأخوه إلى الفراش خرج، ومازال على الموعد ساعتان..

وأعتقد أنه يستطيع قضاء الوقت بالذهاب إلى رابطة الشبان وكان الضوء ينبعث من نوافذ الكون على الشاطئ، وسمع أصوات الصبية الذين ينامون هناك، ولكنه شعر أنهم يتحدثون عنه، فواصل السير.

وسار إلى حاجز الماء خلال الليل، ويمم وجهه نحو نسيم البحر، وتذكر السفينة البيضاء التي أبحر فيها، والسحب في الأفق ذلك اليوم عندما عرف شخصية هاتسو من جوكتيش، وتذكر الشعور الغريب الذي أحس به وهو يرقب شراع السفينة يبتعد، وكان ذلك هو المجهول، وطالما كان يرقب المجهول عن بعد، كان قلبه يشعر بهدوء، ولكنه عندما ركب المجهول وأبحر، شعر باليأس والقلق.

واعتقد أنه يعرف السبب الذي كان قلبه محطماً لا يتحرك على الرغم من أنه مليء بالفرح في هذه اللحظة، لأن هاتسو التي سيقابلها ستصر على إيجاد حل سريع للمشكلة! الهرب؟! ولكنهم يعيشون في قرية منعزلة، فإذا أراد الهرب في زورق فليس لدى شنجي زورق، وليس لديه مال وهو الأهم. إذن فانتحار مزدوج؟ وحتى في الجزيرة كان بعض العاشقين يلجئون إلى هذا الحل، ولكن رجاحة عقل الغلام، استبعدت هذه الفكرة فقال لنفسه:

– أن الأنانيين هم الذين يفكرون في أنفسهم، أنه لم يفكر في شيء مثل الموت، وهناك أسرة يعولها.

وبينما هو يفكر في هذه الأمور مضى الوقت بسرعة ولما كان الغلام غير صغير في التفكير، لهذا اكتشف بدهشة كبيرة أن من خصائص الفكر قدرته على تمضية الوقت ومع هذا تخلى الغلام القوى العزيمة عن هذه الأفكار، مهما كانت، واكتشفت أن التفكير ينطوي على مخاطر..

ولم يكن لدي شنجي ساعة، وكان لا يحتاج إليها، فقد كانت لديه قدرة فائقة على الإحساس بالوقت سواء في الليل أو النهار.

وشعر كما لو أن النجوم تتحرك، وحتى لو لم يكن خيراً في قياس حركة النجوم فكان جسمه يشعر بدوران الليل وثورة عجلة النهار، وهو في مكانه هذا قريب من الأشياء التي تتألف منها الطبيعة، وكان من غير المدهش أن يدرك نظام الطبيعة.

ولكن عندما جلس أمام سلم معبد ياشيرو، مجمع الساعة تدق دقة واحدة، أشرة إلى نصف الساعة، لهذا أيقن أنها العاشرة والنصف، وكان الكاهن وأسرته قد استغرقوا في النوم، وراح الغلام ينصت حتى دقت الساعة الحادية عشرة في الداخل.

ووقف شنجي واجتاز أشجار الصنوبر، وتوقف بعد أن قطع مائتي درجة من السلم الحجري، ولم يكن القمر قد بزغ، والسحب كانت تغطي السماء، ولا يظهر سوى نجم بين حين وآخر، ولكن السلم الحجري كان يجمع ضوء الليل الخافت فيبدو أشبه بشلال مهيب يتدفق من مكان وقوف شنجي.

وكان الغلام فخوراً بالقميص الذي يرتديه، وشعر بأن بياض لونه سيجذب العين حتى من أسفل السلم، ومن بعيد أقبل شبح أسود ضئيل.

وظهر شكل بشري عند أسفل السلم، وكان ضئيل الجسم، وخفق قلب شنجي فرحاً، وكان صوت خطواتها لا ينم عن تعب، وقام شنجي الرغبة في أن يهرع إليها، ولكن بما أنه انتظر طويلاً، فعليه أن يهدأ، ولكن عندما اقتربت منه، رأى وجهها وكانت الوسيلة الوحيدة لكيلا يدعوها باسمها هي أن يجري نحوها، ومتى يستطيع أن يرى وجهها بوضوح؟ على بعد مائة خطوة؟ ماذا!

ومع شنجي عند تلك الحيلة صوتاً غاضباً من أسفل، وكان الصوت يهتف باسم هاتسو، وتوقفت الفتاة عن الخطوة المائة وشاهد صادرها يعلو

ويهبط. وخرج أبوها من الظل الذي كان يختفي خلفه، وأمسك برسغ ابنته، ورآهما شنجي يتبادلان كلمات عنيفة، ووقف شنجي بلا حراك عند رأس السلم كما لو كان قد تسمر في مكانه، ولم ينظر نحو بتروكتيش أبداً، وأمسك بيد ابنته وهبط السلم.

ولم يدر شنجي ما الذي ينبغي أن يفعله، وشعر بأن رأسه في حالة شلل، فظل واقفاً في مكانه بلا حراك، ووصل شح الأب وابنته أسفل السلم، واتجها يميناً، واختفيا عن الأنظار.

الفصل الثالث عشر

واجهت الفتيات دنو موسم الغوص بنفس الضيق الذي يشعر به الشبان عندما يواجهون الامتحان النهائي في المدرسة، وكانت الفتيات يتعلمن النوم على الشاطئ وتزداد براعتهن نتيجة تنافسهن. ولكن عندما يبدأن الغوص لكسب يتحول اللعب البريء إلى عمل وينتابهن الخوف، وأن اقتراب الربيع معناه أن الصيف المخيف قد أقبل..

إذ أن البرد أقبل، وشعور الضيق والغوص في الماء والرعب والخوف من الانهيار الذي يصيب الجسد قد حل، وكانت تقع حوادث عديدة، جراح تصيب القدمين أثناء ركل قاع البحر لإخراج الحيوانات البحرية الصغيرة، وتزداد هذه الأشياء مع الذكرى، فالرعب يزداد مع تكراره، وغالباً ما تستيقظ الفتيات من الكابوس بحيث لا يترك لهن مجالاً للنوم، وفي منتصف الليل وفي الظلام الذي يحيط بالفرش الأمينة كانت الفتيات يغرقن في أحواض من العرق.

وكان الأمر يختلف مع الغواصين القدامى، اللواتي لهن أزواج، إذ عند خروجهن من الماء يغنين ويضحكن ويتحدثن بأصوات عالية، وبدا كما لو أن العمل واللعب أصبحا شيئاً واحداً بالنسبة لهن، وكانت الفتيات يرقبنهن والغيرة تأكل قلوبهن، ويتساءلن هل

سيصبحن كذلك في يوم ما، ولكن مع مرور السنين سيدهشن ليكتشفن أنهن دون أن يدرين قد أصبحن كذلك.

وكانت الغواصات في أوتاجيما يعملن كثيراً في شهري يونيو ويوليو، وتتركز عملياتهن حول شاطئ جاردن في الجهة الشرقية من رأس "بنتن".

وفي ذات يوم وقبيل بدء موسم الأمطار، كانت الشمس محرقة ولا يمكن أن توصف بأنها شمس أول الصيف، وأشعلت الغواصات ناراً لتجفيف ملابسهن.

ومن واقع اسم "جاردن بيتش" كان الشاطئ واسمه بتلك اللغة "نيواهاما" كان أشبه بالحديقة الجميلة، وكانت تحيط بالشاطئ عدة رواب حجرية، يبدو أنها رتبت بحيث يستطيع الأطفال أن يتسلقوها ويلعبوا فوقها رعاة بقر وهنود.

وكان موعد راحة الظهيرة، والمنطقة حول النار صاخبة بالضحك ولم تكن الرمال ساخنة إلى حد أن تحرق أقدام النسوة، وكانت الغواصات يضحكن وقد تهدلت صدورهن، ورحن يعرضن نهودهن، وبدأت إحداهن ترفع نهودها بيديها.

– لا .. لا .. لا تستخدمي يديك، لا تعلمي مدى الخداع الذي ينجم عن استخدام يديك ..

– أنصتوا لمن يتكلم! .. بهذه النهود لا تستطيعين أن تخدعي أحداً حتى ولو استخدمت يديك.

وضحك الجميع وكن يتجادلن حول من تملك أجمل نهد، وكانت نهودهن قد لفحتها الشمس حتى ولو لم يكن لون بشرتهن أبيض. فقد كانت لهن بشرة رائعة صافية، تكشف عن مسير عرقهن، ولكن أسفل البشرة التي أحرقوا الشمس، صنعت الشمس لوناً أشبه بلون العسل، وكانت نهود الغواصات تنضج كل يوم مثل الفاكهة تحت حرارة الشمس اللافحة.

وكانت إحدى الفتيات حزينة لأن أحد نهديها أصغر من الآخر

فقالت سيدة عجوز تواسيها: لا تقلقي من أجل ذلك، وفي يوم من الأيام سيحضر عاشق جميل لكي يصلح من شكلهما لك!

وضحكت النسوة، ولكن الفتاة ظلت قلقة.

فقالت: هل أنت متأكدة يا سيدة أوهارا؟

– نعم فقد عرفت فتاة مثلك من قبل، وعندما تزوجت عاد نهداها إلى حالتهما الطبيعية.

وكانت أم شنجي تفخر في أن نهديها لازالا صغيرين ونضرين، وأجمل نهدين بين المتزوجات ممن هن في مثل سنها .

ولم تكن نهود الفتيات يثرن غيرتها، وكانت هناك نهود أثارت

الإعجاب إلى جانب نهود أم شنجي وكانا نهدي "هاتسو"

وكان هذا أول يوم تغوص فيه أم شنجي، وكانت أول فرصة تمعن فيها النظر إلى هاتسو، وحتى بعد تلك الكلمات التي قالتها عند الباب لا زالت المرأتان تتبادلان التحية إذا تقابلتا ولم تكن "هاتسو" ثرثارة بطبيعتها.

وفي هذا اليوم كانت مشاغلها كثيرة، فلم تكن أمامها فرصة للكلام، وحتى إبان المنافسة كانت المتقدمات في السن هن اللواتي يتكلمن، وتجنبت أم شنجي الكلام مع هاتسو.

ولكن عندما نظرت إلى نهود هاتسو هزت رأسها، وأدركت سبب زوال الشائعة التي انتشرت عنها وعن شنجي، وما من امرأة رأت تلك النهود تستطيع أن نشك في شيء، فهما نهدا فتاة لم تعرف أي إنسان بل أنهما نهدان في بداية النضوج، ويجعلان المرء يتساءل عن جمالهما عندما ينضجان.

ولمست السيدة العجوز نهدي هاتسو براحتها الخشنة فانتفضت الفتاة مذعورة وضحك الجميع.

وأثناء تناول طعام الغداء ظهر شخص محبب لديهم من وراء بعض الصخور حيث كان ينتظر ما يعلم أنه اللحظة المواتية.

وصاحت النساء لمجرد الصياح، وأعدن الطعام إلى أوعيته، وغطين نهودهن وفي الحقيقة لم يشعرن بالذعر أبداً، فأن الدخيل كان بائعاً متجولاً عجوزاً يزور الجزيرة كل موسم. وأن ادعاءهن الحياء لم يكن إلا وسيلة للسخرية من العجوز.

وكان المذكور يرتدي سروالاً وقميصاً مفتوحاً عند الرقبة، وألقى حزمة الأمتعة التي يحملها عن ظهره، وراح يجفف عرقه.

وقال: أعتقد أنني سببت لكم الذعر .. أليس كذلك؟ ربما كان خطأ مني أن أحضر على هذه الصورة. هل أذهب؟

وقال البائع ذلك بثقة تامة من أنهن لن يسمحن له بالذهاب، وكان يعلم أنه لا توجد وسيلة لإثارة رغبة الغواصات في الشراء أفضل من عرض السلع على الشاطئ، وكانت الغواصات يشعرن بالجرأة والكرم وهن قرب البحر، لذا فهو يسمح لهن باختيار ما يرونه هنا ثم في نفس المساء يسلم السلع إلى منازلهن ويجمع النقود. وكانت النسوة تعجبهن هذه الطريقة لأنها تظهر الألوان تماماً على ضوء الشمس.

ونشر العجوز سلعه في ظل الصخور، فازدحمت النساء حوله، ومازال الطعام في أفواههن، وكانت السلع عبارة عن أقمشة وملابس مختلفة للنساء والأطفال، وفتح البائع صندوقاً خشبياً فارتفعت صيحات الإعجاب إذا كان الصندوق مليئاً بأكياس للنقود وحقائب يد وأدوات زينة، وقالت إحدى الشابات:

– لا يوجد شيء لا أريد أن أقتنيه في هذه السلع.

وراح الجميع يفحص البضائع، وثار جدل بين النساء حول استخدامها، وبدأت المساومة وباع البائع عدة أشياء، واشترت أم شنجي حقيبة للتسوق بمأتي "ين" واشترت هاتسو قطعة قماش، وابتهج البائع العجوز بهذه التجارة الطيبة، وأخرج ثلاث حقائب يد بلاستيك جميلة من الصندوق، وقال:

– انظروا .. هذه الزرقاء للشابات، وهذه الحقيبة السمراء لمن هن في منتصف العمر، والسوداء للعجائز.

وقالت سيدة عجوز: سأشتري حقيبة الشابات.

وضحك الجميع، وقال العجوز: هذه الحقائب بسعر محدد هو ثمانمائة "ين".

– أوه أنها غالية.

– طبعاً لقد رفع الثمن.

– لا! لا! لم أرفع الثمن. أنه ثمانمائة ين، سأقدم إحدى هذه الحقائب الجميلة إلى شابة كرمز لتقديري، لكن .. سأقدمها مجاناً.

وامتدت الأيدي فأبعدها العجوز.

فقال: واحدة فقط! أنها جائزة، خدمة، احتفالاً برخاء قرية أوتاجيما ستجري مسابقة؛ ومن يكسب يحصل على الجائزة.

وراحت النسوة يفكرن، كل واحدة منهن تأمل في الحصول على الحقيبة مجاناً وكان البائع ناظراً لمدرسة ذات يوم، وقد وصل إلى هذه الحال بسبب مشكلة مع امرأة ولكن صمت الغواصات الآن أعطاه القدرة على كسب قلوب الناس، وقال لنفسه أنه يستطيع أن يترك المهنة ويصبح مديراً رياضياً.

– حسناً إذا أجرينا مسابقة ينبغي أن تكون لصالح القرية التي أدين لها بالكثير، ما رأيكم في مسابقة لصيد أم الخلول؟ ومن تأتي بأكبر كمية في الساعة التالية سأقدم لها الجائزة!

وفي الحقيقة لم يكن أية حقيبة من الحقائب تساوي أكثر من خمسمائة ين ولكن كانت تبدو أنها تساوي ثمانمائة "ين".

وكانت أم شنجي التي أرادت الحقيبة السمراء لمن هن في منتصف العمر أول من أعلنت عن اشتراكها في المسابقة وتلتها هاتسو.

وركبت المتسابقات الثماني في الزورق وابتعدن عن الشاطئ، ومن بين الثماني كانت هاتسو هي الفتاة الوحيدة. وقد امتنعت الباقيات لأنهن يعلمن استحالة الفوز، ورحن يهتفن لهاتسو، وراحت النساء يشجعن

أصحابهن، واتجه الزورق جنوباً إلى شرق الجزيرة وأما الغواصات اللاتي بقين على الشاطئ فقد جلسن حول البائع ورحن ينشدن.

وكان الماء في الكهف صافياً وازرق اللون، وعندما كانت الأمواج ساكنة كان يمكن رؤية الصخور في القاع.

وبعد ساعة عاد الزورق من الجهة الشرقية للجزيرة، وجلست الغواصات الثماني متعبات أكثر من المعتاد، صامتات في الزورق، كل منهن تحدق في جهة، وقد بدت أجسادهن العارية التي لفحتها الشمس شاحبة مما جعلهن أشبه بجثث غرقى.

واستقبلن بحفاوة بالغة، وضجة صاخبة، وعندما وصلن سقطن من الإعياء حول النار، وبعد أن أحصى البائع حصيلة الصيد أعلن النتائج: هاتسو عشرين خلولة الأولى، وربة أسرة كوبو ثمانى عشرة، الثانية! وتبادلت هاتسو وأم سنجي نظرات من أعين متعبة حمراء.

وذهبت هاتسو التي استطاعت أن تتفوق على أحسن غواصة في الجزيرة، لأنها تعلمت الغوص في جزيرة أخرى، وذهبت لتتسلم الجائزة، وأحضرت حقيبة سمراء وضعتها في يدي أم شنجي، فاحمرت وجنتا الأم فرحا وقالت لكن؟ ماذا؟

– لأنني أريد أن أعتذر لك منذ أن تكلم أبي بوقاحة ذلك اليوم.

وقال البائع:

أنها فتاة رائعة، وراح الجميع يكيلون لها الثناء، ويحثون الأم على قبول الهدية فأخذتها ووضعتها تحت ذراعها وقالت: شكراً لك!

وأدرك قلب الأم البسيط المستقيم التواضع والاحترام الذين وراء هذه المبادرة من الفتاة، وابتسمت هاتسو وقالت الأم لنفسها: كم كان ولدي حكيماً لاختياره لها زوجة، وبنفس الطريقة كانت تجري الأمور في الجزيرة.

الفصل الرابع عشر

كان موسم الأمطار عند شنجي يجعل الأيام تتوالى قاسية كئيبة، فقد انقطعت رسائل هاتسو، ولا شك أنه بعد أن أحبط أبوها لقاءهما عند معبد "ياشيرو" والذي علم به بعد أن قرأ رسالتها ومنعها من الكتابة.

وقبيل نهاية موسم الأمطار بيوم جاء ربان "أوتاجيما مارو" إلى الجزيرة وكانت أوتاجيما مارو أكبر سفينتين للشحن يملكهما تيروكيش مياتا، وقد رست في طوبا، وذهب الربان إلى منزل تيروكيش ثم إلى منزل ياسو، وفي تلك الليلة ذهب إلى جوكيش رئيس شنجي ثم ذهب إلى منزل شنجي.

وكان الربان قد تجاوز الأربعين وله ثلاثة أبناء، وكان شخصاً ضخماً يفخر بقوته. ملامحه لطيفة، وكان من طائفة "نيشيرن" ولو كان في الجزيرة عند عيد المصباح، فأنه سيقوم بدور الراهب في قراءة التراتيل عند روح الموتى، وله نساء في مختلف الموانى وكان البحارة يدعوهم بأسماء العمة مثل العمة يوكوهاما، العمة موجي وهكذا، وإذا وصل قبطان السفينة إلى أحد هذه الموانى فأنه يذهب مع البحارة الشبان إلى مقر امرأة يعرفها لتناول الشراب، وكانت العمات يرتدين ملابس متحفظة، ويعاملن البحارة بلطف ورقة.

وكانت هناك قصص تقول أن رأس القبطان الأصلع هو نتيجة فجوره وفسقه لهذا كان يرتدي قبعة.

وعندما وصل القبطان إلى المنزل بدأ يبحث مهمته مع أم شنجي، وكان الغلام حاضراً.

وقد جرت العادة أنه عندما يصل أبناء القرية إلى سن سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً يبدءون التدريب كبحارة صغار، وكان شنجي في تلك السن، فسأل القبطان عما إذا كان يجب أن يتدرب على الملاحة.

والتزمت الأم الصمت وقال شنجي أنه سيعطيه جوابه بعد أن يبحث الأمر مع رئيسه وقال له الكابتن أنه إذا كانت المسألة تتعلق بموافقة جوكتيش فأنه قد حصل عليها.

ولكن كان الأمر غريباً فأن "أوتاجيما مارو" تخص تيروكيش، وليس ثمة من سبب يدعوه إلى استخدام شنجي الذي لا يحبه.

فقال القبطان: أن العم تيرو يعتقد أنك ستكون بحاراً ممتازاً، وحالما ذكرت اسمك وافق العم تيرو، لذا تعال ابذل ما في وسعك واعمل.

وللتأكد من الأمر رافق شنجي القبطان إلى منزل جوكيش الذي دعاه إلى قبول العمل، وقال له أنه سيكون من العسير أن تسير الأمور في الزورق "تايهي" بدون شنجي، ولكنه لا يستطيع أن يقف في طريق مستقبل شنجي فوافق هذا.

وفي نفس اليوم سمع شنجي أنباء مدهشة وهي أن ياسو سيعمل في أوتاجيما مارو، وتقول القصة أن ياسو لم يرحب بفكرة التدريب ولكنه أرغم على ذلك، عندما أعلن العم تيرو أن التدريب يجب أن يسبق الخطوبة لهاتسو.

وعندما سمع شنجي بذلك امتلأ قلبه بالألم، والألم مثل الأمل، وذهب شنجي مع أمه إلى معبد ياشيرو للصلاة من أجل تسهيل الرحلة والحصول على تعويذة.

وحانت ساعة الرحيل، وصعد شنجي وياسو مع الكابتن إلى السفينة لعبور البحر إلى طوبا.

وجاء عدد من الناس لوداع ياسو، وبينهم هاتسو، ولكن أباها لن يحضر، ولم يودع شنجي سوى أمه وهيروشي.

ولم تنظر هاتسو نحو شنجي، ولكن عندما أوشك الزورق على الرحيل همست بشيء في أذن أم شنجي وسلمتها صندوقاً صغيراً. أعطته هذه لأبنها.

وحتى بعد أن صعد شنجي فوق الزورق لم يجد فرصة لفتح الطرد، لأن الكابتن وياسو كانا معه وراح يحدق نحو أوتاجيما وأحس بمشاعره لأول مرة.

فهو شاب ولد وترعرع في تلك الجزيرة، يحيا أكثر من أي شيء في العالم، ولكنه يريد الآن أن يغادرها، وكانت رغبته في مغادرتها هي التي دفعته إلى قبول عرض الكابتن للعمل في السفينة.

وبعد أن ابتعدت الجزيرة عن ناظريه، شعر بالهدوء يغمر قلبه، وشعر بأنه لن يفكر الآن في أنه سيعود الليلة إلى الجزيرة مرة أخرى.

وقال في أعماقه: أنا حر .. وكانت هذه أول مرة يشعر فيها بهذا النوع من الحرية.

وأبحرت السفينة في جو ممطر، واضطجع الكابتن وياسو على حصيرة وناما، ولم يتكلم ياسو مع شنجي أبداً، منذ أن ركبا المعدية، وراح شنجي على ضوء خافت يتحسس محتويات الطرد الذي بعثته إليه هاتسو وكانت فيه تعويذة أخرى من معبد "ياشيرو" وصورة لهاتسو ورسالة تقول:

سأذهب كل يوم ابتداء من الآن إلى معبد "ياشيرو" لكي أصلي من أجل سلامتك أن قلبي لك، أرجوك أن تعني بنفسك، وتعود سليماً معافى، أنني أضع صورتي في هذا الطرد لكي أستطيع أن أسافر معك، لقد التقطت هذه الصورة في "كيب دايو"، وأما عن الرحلة فأن أبي لم يذكر عنها شيئاً لي، وأعتقد أن هناك سبباً خاصاً جعله يجمع بينك وبين ياسو في السفينة، وأعتقد أن هناك بارقة أمل لنا، أرجوك ألا تفقد الأمل وواصل النضال.

وبعثت الرسالة الشجاعة في نفس شنجي، فامتلأت يداه قوة، وانتشرت الحيوية في جسده، لأنه شعر أن الحياة تستحق أن يحياها المرء.

وكان ياسو نائماً، وعلى الضوء الخافت راح شنجي يفحص صورة هاتسو، و تظهر فيها الفتاة مستندة على إحدى أشجار الصنوبر الفخمة في كيب دايو، وكان نسيم البحر يهب فيحرك ملابسها، ويكشف عن بشرتها الناعمة، وظل شنجى ينظر إلى الصورة مدة طويلة.

وزالت السكينة عن نفس شنجي مرة أخرى، ولكن الطريقة الغريبة التي يمكن للحب أن يعذب بها القلب بالرغبة لم تعد جديدة عنده.

وانقطع هطول الأمطار عندما وصلوا "طوبا" وكانت السفينة "أوتاجيما مارو" تقف في الميناء بين الزوارق الصغيرة، وقفز الثلاثة إلى ظهرها.

ولم يكن البحارة قد عادوا من أجازتهم، وقاد الكابتن الشابين الي مكانيهما وكانت الغرفة الخاصة بهما مجاورة إلى مكان القبطان وقريبة من المطبخ والميسر Mess. كان هناك سريران على اليمين واثنان على اليسار، وهما من دورين، وسرير مستقل للمهندس، وكانت صور عدد من الممثلات تزين الغرفة، وخصص لشنجي وياسو السريران اللذان على اليمين، وكان كبير المهندسين ومساعدو القبطان الأول والثاني والبحارة والصيادون ينامون في هذه الكبينة الصغيرة، ولكن هناك عدداً كافياً من الآسرة دائماً.

وبعد أن طاف الاثنان في السفينة تركهما القبطان لكي يستريحا في كابينة البحارة وبعد أن بقي الاثنان وحدهما نظر أحدهما للآخر فشعر ياسو بقلبه يغوص بين جنبيه فقرر أن يتصالح معه.

–حسناً هانحن معاً، لكي نكون أصدقاء، لقد وقعت أشياء عديدة في الجزيرة، لننسها ولنكن أصدقاء من الآن.

فوافقه شنجي وابتسم.

وعند المساء عند البحارة إلى السفينة، وكان معظمهم من أوتاجيما، وكانوا يعرفون شنجي وياسو، وبعدئذ صدرت التعليمات للاثنين وكلف كل منهما بعمله.

وكانت السفينة ستبحر في التاسعة صباحاً، وأعطيت لشنجي مهمة إنزال مصباح الرسو من فوق الصاري.

وكان مصباح الرسو مثل "شيش" منزل قرب الشاطئ، وكانت إضاءة المصباح معناها أن السفينة مستيقظة، وكذلك الحال بالنسبة للمنزل فأن فتح "الشيش" معناه أن المنزل قد استيقظ.

ولم ينم شنجي تلك الليلة، ونهض قبيل بزوغ الشمس في الصباح، وانزل مصباح الرسو، وكان المطر يدثر المصباح، وصعد الغلام إلى الصاري، وتساءل شنجي عن الميناء الذي سيكونون فيه عندما سيطفئ هذا المصباح في المرة التالية.

وكانت السفينة "أوتاجيما مارو" التي تستأجرها ياماجاوا للنقل ستنقل أمتعة إلى أوكيناوا وتعود إلى كوبي خلال ستة أسابيع، وبعد أن أبحرت في ممر "كى" ورست "في كوي" أبحرت السفينة نحو الغرب عبر البحر الداخلي، ودخلت الحجر الصحي في موجى تم سارت جنوباً على طول الساحل الشرقي لكيوشو، وحصلت على أذن التخليص من ميناء تيشتنيان في مقاطعة يمازاكي حيث يوجد مكتب للجمارك.

ثم رست السفينة في ميناء فوكوشيما جنوب كيوشو، ثم نقلت شحنة من العفش وزنها أربعة عشر ألف قدم مربع.

وبعد أن غادرت السفينة فوكوشيما أصبحت في الحقيقة سفينة عابرة للبحر، وصارت تعامل على هذا الأساس، وكانت ستصل إلى أوكيناوا خلال يومين، أو يومين ونصف.

وعندما لم يكن هناك عمل للقيام به في الشحنة، أو أثناء فترات الراحة، كان البحارة يجلسون على الأرض ويستمعون إلى الفونوجراف ولم تكن هنالك سوى تسجيلات بالية لا يسمع منها سوى موسيقى مشوشة، وكان كبير المهندسين لا يحفظ الألحان، وقد فشل في حفظ أي لحن أثناء الرحلات.

وكان الجميع يتحدثون ساعات وساعات عن الحب والزواج، وما إلى ذلك، وكان الذي يتمسك برأيه بشدة يكسب في النهاية، وكان النقاش

الذي يقوم به ياسو رئيس رابطة الشبان منطقياً مما جعله يكسب احترام من هم أكبر منه سناً، أما شنجي فكان صامتاً يستمع للآخرين ويبتسم.

وقال كبير المهندسين للقبطان مرة: لا شك أن الغلام أحمق.

وكانت الحياة على الزورق حافلة، وابتداء من وصول القادمين الجدد، كانت هناك أماكن لتنظيفها أو أعمال أخرى يقومون بها.

واتضح للبحارة أن ياسو كسول، وكان يرى أنه يكفيه القيام بحركة لإنجاز عمله وكان شنجي يقوم بجزء من عمل ياسو، لهذا لم يكتشف رؤساؤه هذا الجزء من موقفه.

وفي صباح ذات يوم وجد مفتش السفينة ياسو في الكابينة بعد أن هرب من التنظيف بحجة أنه يريد رؤية القبطان فصاح به فقال ياسو:

–حسناً عندما تنتهي الرحلة، سأصبح ابن العم تيرو، وستصبح السفينة لي.

فغضب المفتش لكنه أمسك لسانه وقال: قد يكون الأمر مثلما قال

ياسو فلم يوبخ ياسو أبداً، ولكن علم الآخرون بما قاله الشاب وكانت النتيجة في غير صالحه.

وأما شنجي فكان مشغولاً دائماً، ولم تكن أمامه سوى فرصة بسيطة للنظر إلى صورة هاتسو، وكان هذا قبيل النوم أو وهو في الحراسة، ولم يكن يسمح لأحد بأن ينظر إلى الصورة، وفي يوم من الأيام عندما كان يتفاخر ياسو بأن تيرو كيشي قد اختاره زوجاً لابنته انتقم منه شنجي وسأله عما إذا كانت لديه صورة لهاتسو فأجابه ياسو بالإيجاب وكان شنجي يعلم أن ياسو يكذب فامتلأ قلبه بالفرح.

وبعد لحظات سأله ياسو عما إذا كانت لديه صورة.

فقال له: صورة ماذا؟

- صورة لهاتسو

- كلا ! ليس لدي!

وكانت هذه أول كذبة مقصودة يقوم بها شنجي في حياته، ووصلت السفينة إلى "ناها" وبعد الحجر الصحي دخلت الميناء وأفرغت شحنتها، واضطرت إلى أن تبقى راسية يومين أو ثلاث تنتظر السماح لها بدخول ميناء أونتن المغلق، حيث ستنقل معادن خردة في رحلتها وهي عائدة إلى اليابان.

وكانت "أونتن" عند الطرف الشمالي من أوكيناوا حيث نزلت القوات الأمريكية في اليابان.

ونظراً لأن البحارة لم يسمح لهم بالنزول إلى الشاطئ فقد أمضوا الوقت ينظرون إلى التلال الجرداء، وكان الأمريكيون قد أحرقوا الأشجار فوق التلال حيث نزلوا خوفاً من وجود ألغام لم تنفجر.

وقد توقفت حرب كوريا مؤقتاً ومع هذا رأي البحارة أن هناك جواً غير عادي يحيط بالجزيرة، وكانت الطائرات المقاتلة تحلق في السماء، والسيارات العديدة تجوب الأرض، وكانت منازل عائلات القوات الأمريكية حديثة في حين كانت منازل الوطنيين قديمة مهدمة، وكان مساعد القبطان الأول هو الذي ذهب إلى الشاطئ لكي يطلب من وكيل شركة "ياماجاوا" للنقل إرسال تقويم.

ووصل الأذن بدخول ميناء أونتن، فدخلت السفينة وشحنت ما تريد شحنه وبعد أن انتهوا من الشحن جاء الخبر أن هناك إعصاراً يهدد اوكيناوا، وعلى أمل تجنب الإعصار نتيجة الإبحار بسرعة غادرت السفينة الميناء في الصباح، وانطلقت السفينة نحو اليابان.

وسقطت أمطار خفيفة في ذلك الصباح، وكانت الأمواج عالية، والرياح جنوبية غربية، وسارت السفينة ست ساعات بواسطة البوصلة والرؤيا غير واضحة وكان مقياس الحرارة يهبط باستمرار، والأمواج تعلو شيئاً فشيئاً، ووصل الضغط الجوي إلى درجة هبوط غير عادية.

وقرر القبطان العودة إلى أونتن، ووصلت الرؤيا إلى الصفر، وكانت العودة شاقة، وشاهدوا تلال أونتن، وكانت الملاحة صعبة، وسارت السفينة

ببطء إلى الأمام، وعبرت الصخور، وكانت الساعة السادسة مساء. ودخلت السفينة إلى الميناء مع سفينة أخرى، وكانت الأمواج في المساء منخفضة، ولكن الرياح اشتدت، واستعدت السفينتان المواجهة العاصفة.

ولم يكن لدي أوتاجيما جهاز للراديو ولكنها تعتمد على البوصلة فكان عامل الراديو في السفينة الأخرى ينقل لهم كل نبأ عن سير الإعصار وعن الطريق، وعندما جاء الليل وضعت السفينة الأخرى أربعة حرا ، بينما وضعت أو تاجيما ثلاثة، وكانت مهمتهم مراقبة الأعمدة والحبال في السفينة فقد كان هناك شعور بأن العوامة لن تصمد، ولكن كان خطر انقطاع الخطوط كبيراً، وكانت مواجهة الأمواج والرياح أمراً ينطوي على الموت، وفي مساء ذلك اليوم وفي الساعة التاسعة واجهت السفينتان ريحاً سرعتها ستة وخمسون ميلاً في الساعة.

وقبل ساعة من منتصف الليل تولى شنجي و ياسو وأحد البحارة الشبان الحراسة وقد ألقتهم الريح على أحد الجدران عند خروجهم إلى السطح. وكان من المستحيل عليهم الوقوف منتصبين على ظهر السفينة، وكان كل لوح من الألواح الخشبية في السفينة يهتز، ولم تكن الأمواج عالية بحيث تكتسح ظهر السفينة إلا أن رذاذ الموج كان يثير ضباباً ويحجب الرؤيا، ووصل الثلاثة إلى ظهر السفينة.

واستطاع الثلاثة أن يروا العوامة على بعد خمس وعشرين ياردة، في الليل، وعندما كان الموج يرتفع عالياً، كانت العوامة تهبط وتبدو صغيرة.

ونظر الثلاثة إلى بعضهم البعض وهم يمسكون بالأعمدة، ولم يتكلموا، وكان زئير الرياح يخيم على المكان.

وكانت مهمتهم مراقبة الحبال التي تربط السفينة بالعوامة، وكان النوء عنيفاً يهدد كل شيء، وكانت الطريقة التي ينظرون بها إلى هذه الأسلاك تخلق الثقة في قلوبهم والتي مبعثها تركيز الاهتمام، وبدا كما لو أن الريح قد توقفت إلا أن مثل هذه اللحظات كانت تجعلهم يرتجفون خوفاً.

وفي التو جاءت الريح تزأر وتملأ الجو صخباً، واستمر الصمت يخيم على الثلاثة، وهم يتولون المراقبة، وظل صوت الريح يهب على الحبال فتهتز محدثة صوتاً وقال ياسو في صوت حاد: انظروا.

و بدا أن أحد الكابلات قد أخذ يتزحزح عن مكانه، وشاهد الثلاثة تغيراً في طريقة ارتباط الحبال بالأوتاد.

وفي تلك اللحظة انقطع خيط وراح يهتز في الظلام كأنه سوط، وارتطم بالأوتاد، وأحدث صوتاً مزعجاً، وابتعد الثلاثة بسرعة ليتمكنوا من النجاة وحتى لا يصيبهم الكابل الذي كان يكفي لشطرهم، وظل الكابل يهتز ، ثم توقف. وعندما سيطر الثلاثة على الموقف كانت وجوههم شاحبة، فقد انقطع أحد الحبال الأربعة التي تصل السفينة بالعوامة، وليس هناك من يضمن انقطاع الحبال الباقية بعد ذلك.

فقال ياسو: لندع القبطان، وراح يبحث عن أشياء يمسك بها لأنه سقط على الأرض عدة مرات، وذهب إلى القبطان وأبلغه الأمر، وظل القبطان هادئاً أو بدا أنه كذلك.

وقال: حسناً دعنا نستخدم حبلاً آخر، لقد بلغ الإعصار ذروته في الساعة الواحدة، وليس ثمة خطر من أن تستخدم هذا الحبل الآن، وهناك من يستطيع أن يسبح الي العوامة ويربط الحبل الجديد بها.

وترك القبطان مساعده الثاني عند القيادة، وسار القبطان ومساعده الأول وراء ياسو.

و نظر شنجي والمفتش نحوها مستفسرين ووقف القبطان وقال بصوت عال

من منكم سيأخذ الحبل إلى هناك ويربطه بالعوامة؟

وظل الثلاثة صامتين، وقال القبطان ثانية: أليس بينكم من له لسان؟

فارتعشت شفتا ياسو ومال برأسه إلى الأسفل، ثم قال شنجي بصوت جذل:

أنا سأفعل.

– حسناً اذهب.

ووقف شنجي و كان خجلاً من نفسه وهو فوق ظهر المركب، وكانت الريح عنيفة، ترتطم بجسده، ولكن شنجي تعود على الطقس العنيف في زورق الصيد ولذا كان ثابتاً في وقفته، ووقف يصغى، وكان الإعصار فوق رأس الفتى الشجاع.

كان الأمر سهلاً بالنسبة لشنجي، وخلع معطفه الواقي، وألقاه جانباً، ووقف عاري القدمين ؟ أبيض اللون والعاصفة تهب على المكان.

وحسب تعليمات القبطان ربط الرجال طرف الحبل في الوتد، والآخر بوتد صغير وبعد أن انتهى الرجال من العمل الذي سار ببطء بسبب الرياح أعطى القبطان الطرف الخالي لشنجي وصاح في أذنه: أربط الطرف حول خصرك، وأسبح نحو العوامة، وعندما تصلها أربط الطرف هناك بقوة.

ولف شنجي الحبل حول خصره، وفوق الحزام، ثم هبط إلى البحر، وكانت الأمواج في الأسفل تدفع جسدهم، وظل الموج يدفعه في دوامة، وعند هذه اللحظة تذكر شنجي صورة هاتسو وكيف أنها في معطفه داخل كابينة البحارة، إلا أن هذه الفكرة تاهت في مهب الريح.

وانطلق شنجي من السفينة وكانت العوامة على بعد خمس وعشرين ياردة، ورغم قوته الكبيرة وقدرته على السباحة، بدا له أنه مستحيل أن يتمكن من قطع هذه المسافة الصغيرة.

وكانت تواجهه مقاومة كبيرة، والأمواج عاتية، وعندما حول أن يواجه هذه الأمواج كانت حركاته عقيمة.

واعتقد أن العوامة على مرمى ذراع، وعندما رفع رأسه وجدها لازالت في مكانها وسبح الغلام بكل قوته، وبوصة بوصة، وخطوة خطوة، تداعى العدو وفتح السبيل أمامه، وعندما لمس العوامة دفعه الموج ولكن لحسن الحظ دفعته موجة إلى الأمام، ووضعته فوق العوامة.

وتنفس شنجي الصعداء واستنشق الرياح، وفي تلك اللحظة بدا له أنه لا يستطيع أن يتنفس مرة أخرى، ونسى لحظة المهمة التي جاء من أجلها.

الفهرس